عبقرية خالد

عباس محمود العقاد

الناشر الوحيد في كافة البلاد العربية والاسلامية

عدا مصر

المكتبة العصرية

للطباعة والنشر

صاحبها: شريف عبد الرحمن الأنصاري

تلفون : بيروت ٢٣٧٥٤٥ ص· ب· ٨٣٥٥

صيدا ٧٢١٦١٢ — ٧٢٠٣١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا لله ، وصلاة وسلاما على حبيبه ومصطفاه .. محمد بن عبد الله، وارض اللهم عن كل من خطا خطاه ، واتبع نهجه وسار على هداه ...

وبعد :

فمع العقاد نواصل المسيرة ، وننتقل مع روائعه من سيرة الى سيرة ، لنرى العجب العجاب ، والسحر الآسر للألباب ، في تصويره للعباقرة في عظمتهم ، والعظماء في عبقريتهم ... فنحس وكأن كل بطل من الابطال نسيج وحده .. تفرد بالعبقرية ، وارتقى الى ذروة الانسانية ، وسما الى قمة البشرية ..

والبديع حقا ان المواقف التي صورها المؤرخون على أنها مآخذ على هؤلاء الابطال .. استطاع الكاتب بفكره الدقيق ، وتحليله العميق ، واستقصائه الوثيق ، أن يجعلها مفاخر لهم ، لا معايب تهز قدرهم ، أو تقلل شأنهم .. وفي هذا تكمن عظمة الكاتب ، وتظهر قدرته ، وتبرز شخصيته ، وتثبت عبقريته ..

وبطل هذا الكتاب ... ذاع في الدنيا صيته ، وعلا في التاريخ صوته ، وطال في ميادين البطولة شوطه ، واقترن اسمه بالنصر ، فأشاع في نفوس الاعداء الفزع والقهر ، وكان مجرد اختياره للقيادة مدعاة — بين جنوده — للثقة والطمأنينة ، ومثارا لقوة العزم وشدة الشكيمة ... انه سيف الله .. خالد بن الوليد .

ولقد استهل الكاتب بحديث عن البادية والحرب ، بين فيه أسباب النصر الذي حققه أهل البادية على أقوى دولتين في ذلك العصر .. ألا وهما : الفرس والروم ..

فذكر أن أسباب الهزيمة متعددة ، ويأتي في مقدمتها الغرور الباطل ، والاستهانة بالخصم ..

لهذا وغيره انتصر العرب على الدولتين العظميين ، لظنهما أن العرب لا ينتصرون ..

فكانت نظرة الفرس الى العرب قائمة على التحقير والاستخفاف ، وكذلك الامر بالنسبة للروم .. ولقد أخطأ المؤرخون المحدثون الذين استعظموا انتصار العرب على هاتين الدولتين ، واعتبروا ذلك فلتة أو

مصادفة ، والتمسوا العلل الواهية لتبرير هزيمتهما من جانب أهل البادية وسكان الصحراء ..

ولكن الكاتب ــ بصدق يراعه ، وطول باعه ــ رد على كل تعليل بما أبطله ، وكل زيف بما أظهره ، وأثبت أن العرب كانوا جديرين بهذا الانتصار ، وأنهم كانوا أخبر بفنون الحرب ، وأقدر على تنفيذ الخطط العسكرية الناجحة ، بعكس ما توهم المؤرخون ..

وساق دليلا على ذلك .. واقعة حربية مشهورة ، نشبت بين العرب والفرس .. تلك هي موقعة « ذي قار » التي انتصر فيها العرب ــ على الرغم من قلة عددهم وعدتهم ــ وذلك بفضل اليقظة ، والكفاية ، والخفة ، والفن الحربي السليم ، والعزة المشكورة .. فكانوا أهلا للنصر ، حيث رسموا له كل مقوماته ، وخططوا لكل عوامل تحقيقه ، بما لهم من خبرة أصيلة في حرب العصابات التي فرضتها عليهم حياة البادية ، وخبرة مكتسبة في فن الحروب ، أفادوها من تجاورهم مع دول الحضارة ، فلم يكن انتصار العرب على الفرس والروم وليد المصادفة ، أو كان فلتة نادرة ، وانما كان لانهم استحقوا النصر بكل أسبابه ومقوماته ..

ولئن كانت الوحدة عنصرا أساسيا في تحقيق النصر ــ والعرب قد افتقدوها بصورتها الكاملة قبل الاسلام ــ فان الدعوة الاسلامية جاءت فوحدت صفوفهم ، وجمعت شتاتهم ، وربطت بينهم ، وتم لهم ما نقص ، وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الارض والسماء .

ثم ألقى الكاتب الضوء على البيئة التي تربى فيها خالد ... فبين مكانة قريش ، ودورها في الثقافة العربية ، والناحية الاقتصادية ، وخبرتها في السياسة والنظم الحكومية ، والنظام الفريد الذي أخذت نفسها به .. وهو نظام يعتمد على توزيع الاختصاصات والمسئوليات على بطون القبيلة الواحدة ، وكان نصيب بني مخزوم ــ البطن الذي منه خالد ــ من مسئوليات الحكم : القبة ، وهي مجتمع الجيش ، والأعنة ، وهي : قيادة الفرسان ..

ونشأ خالد في أعرق بيوت بني مخزوم ، وأعلاها ، وأشرفها ، وأغناها .. فجده المغيرة كان ينسب اليه ، ويشعر المخزومي بالشرف حينما يقال عنه : مغيري ، وأبوه الوليد . لقب بالعدل ، وبالوحيد ، وبريحانة قريش ، وهو الذي قال : أينزل القرآن على محمد ، وأترك ، وأنا كبير قريش وسيدها ؟.. وهو أحد اثنين نزل فيهما قول الله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وعمه هشام .. قاد بني مخزوم في حرب الفجار ، وأرخت قريش بوفاته .. وغير هؤلاء كثيرون ، لهم سجل زاخر بالمفاخر ..

غير أن بني مخزوم كان من صفاتهم الشائعة : حب السيطرة ، والصرامة ، وقلة الرحمة ، والاستزادة من المال ومتع الحياة .. ومن نوايا

نسائهم أنهن اشتهرن بالجمال ، وكن يلقبن برياحين العرب ٠٠ وكانوا أحرص البطون في المحافظة على القديم ، لذلك كانوا أكثر صدا ، وردا ، وعنادا ، وكانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخالد بن الوليد ، الذي انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان ، فدخل الاسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية ، فصنع للاسلام ، وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين ٠

والبيت الذي نشأ فيه خالد بيت رئاسة وزعامة ، وكان لأبيه الوليد في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم ٠٠

ولقد ظهرت على خالد مخايل الفروسية في باكورة صباه ، مما جعل أباه يختاره لقيادة الخيل ٠٠ وخالد في أوصافه الخلقية كان شبيها بعمر بن الخطاب ، وتعلم في صباه كل ما يحتاجه المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ٠٠

ولم يستبعد الكاتب أن يكون خالد قد راض نفسه على عيشة الشظف والخشونة في البادية ، ليتمرس بالمصاعب ، وليتدرب على مآزق الحروب٠٠ وكان على علم بالبادية لكثرة أسفاره في أرجاء الجزيرة ٠٠ كما ساق العقاد بعض العوارض لاسرة خالد ، واعتبرها من مهيئات الاقدار لانجاب العباقرة ، وفي ظلالها كانت نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ٠

كما اعتبر الاستاذ العقاد ان اسلام خالد كان ضربا من ضروب التسليم، وهذا وصف وفق فيه الكاتب أيما توفيق ، لانه يتلاءم مع طبيعة خالد العسكرية والقيادية ، ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع المنخذل ، وانما كان ٠٠ لانه بلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ نهاية الايمان بربه ٠٠

أسلم خالد بعد أن أمال راية النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين يوم أحد ٠٠

وبعد أن كان موكلا بقتل النبي في غزوة الاحزاب ٠٠

وبعد أن تصدى للرسول في عام الحديبية ، وراودته نفسه في أن يغير على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو في الصلاة ، وفي هذا يقول :

« هممنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه خبرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به ، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا ، وقلت : الرجل ممنوع » ٠

وبعد أن أبت عليه نفسه وخنزوانته أن يبقى في مكة ، ويرى المسلمين

وهم يدخلونها معتمرين ، تنفيذا لصلح الحديبية ٠٠

وبعد أن كانت كراهته للاسلام امتدادا لكراهة أبيه الذي بذل الولد والمال ثمنا لهذه الكراهية ٠٠ ولكن الكاتب ـ بذكائه المعهود ـ حلل هذه الكراهية من جانب خالد بأنها كانت أقرب الى المبارزة منها الى المقت والضغينة ، وهذا تحليل يلائم طبيعة خالد أيضا ٠

وسبق اسلام خالد عدة مؤثرات ، ساهمت في تفتح قلبه ، واسترشاد عقله ، واقباله على الايمان بربه ٠٠

سبق اسلامه انقسام بيت المغيرة الى معسكرين : جاهلي واسلامي ٠٠

وسبق اسلامه اصغاء أبيه لآيات القرآن يتلوها النبي محمد ، وما أحدث ذلك من أثر في نفسه جعله يقول في القرآن ما قال ، حتى ظنوه قد صبأ عن دينه ، لولا أن تداركه منزلته في قومه ، ففكر وقدر ، وغالط نفسه ، وأقبر رأيه ، وزعم أنه سحر يؤثر ٠٠

وسبق اسلامه هذا المشهد الجليل المهيب يوم شاهد المسلمين وهم قائمون للصلاة خلف الرسول في طريق الحديبية ، فأيقن أن لمحمد سرا ، وأنه لممنوع ٠٠

وسبق اسلامه مواقف ومشاهد جعلته وغيره يرتابون في الغد ، فيفكرون في حسم الموقف ، والانتهاء الى رأي ، وفي مرحلة الجذب والدفع ، والمد والجزر ، وصلت رسالة لخالد من أخيه الوليد بن الوليد ، فكانت بمثابة دعوة الى الاسلام وجهت في أوانها ، وكان اسلام خالد هو الجواب ٠٠ كان اسلامه تسليم القلب نغص عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح ٠٠

وما هي الا فترة وجيزة حتى زحف المسلمون ـ ومنهم خالد ـ على مكة فاتحين ، بعد أن نقضت قريش عهدها مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتم فتح مكة ، ولم يحدث قتال في هذا الفتح الا من صوب خالد ، بعد أن تعرض له رفقاء الشرك ٠٠ رفقاء الامس ٠٠ فرموه ورماهم ، بعد أن كانوا ـ متحدين ـ يوجهون سهامهم صوب المسلمين !!٠

وصاحب الكاتب خالدا في صحبته للرسول ، وقد أخذ مكانه المرموق بين أصحاب النبي الاخيار الاطهار ٠٠ المختلفين في الاعمار ٠٠ والمتفاوتين في الاقدار ، فكان قدره عظيما ، ومقامه كريما ، وخلع عليه النبي ـ وهو الخبير بسبر أغوار الطبائع والافكار ـ لقب « سيف الله » ٠٠

ومن عجب أن هذا اللقب الذي ناله خالد لم يظهر لذي عينين سر استحقاقه له بمعناه الكامل الا بعد وفاة الرسول ، حينما قام بدحر المرتدين ، وحطم الاكاسرة ، وذل القياصرة !!٠

ومن عجب ـ أيضا ـ أن الرسول لقب خالدا بسيف الله في وقت عاد فيه جيش المسلمين ـ وفيهم خالد ـ والناس يلومونهم ، ويقولون لهم :

يا فرارا !! وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مثل رؤساء الامم الذين يعرفون موضع الاكليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، وانما كان يرى بالعين الملهمة القادرة على الرؤية في ظلام المحنة والبلاء ·· فلمح ببصره العلوي هذه القدرة في معدنها في وقت رأى الناس فيه خالدا مرتدا من غزوة مؤتة ، أو مأخوذا مع الخيل وهي تولي في أول المعركة يوم حنين ، أو صانعا في سرية بني جذيمة ما برأ منه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ !!·

لهذا لم تكن حفاوة الرسول بخالد ، وتقديره له من قبيل المجاملة ، وانما كان تقدير البصير الخبير بالجوهر النفيس في معدنه الخفي ··

ولحقت روح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الاعلى ، ولم يمض على اسلام خالد الا حوالي ثلاث سنوات ، أسند اليه النبي خلالها أعمالا صغيرة ، وأشركه في أعمال كبيرة ، كانت كلها بمثابة مقدمات لاعمال جليلة وعظيمة ، سيكون خالد قائدها ، وعظيمها ، وبطلها الاول ، وستكون الترجمة الفعلية لهذا اللقب الكبير الذي استحقه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال : « خالد سيف من سيوف الله » ·

وكانت حروب الردة ·· وكانت الفتوحات ·· وكان نصيب خالد فيها نصيب الاسد ـ كما يقولون ـ فلقن الاعداء دروسا عنيفة مخيفة ، ولكنها في شرعة الحرب كانت عادلة ··

وتناول الكاتب حروب الردة ، والفتوحات بأسبابها ، ودوافعها ، ومخططاتها ، ونتائجها ، ورسم لنا خالدا في حجمه الطبيعي ·· ماردا عملاقا ·· قائدا فنانا ·· محاربا مقداما ·· نابغة في فنون الحرب والانتصار ·· قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها ، وقوض بنيان دولة الاكاسرة ، وحطم كبرياء دولة القياصرة ، وسبق اسمه الى أطراف الدولتين ، فحارب أعداءه بهيبته ، قبل أن يحاربهم بسيفه وأهبته ، حتى قال فيه صاحب دولة الجندل لقومه :

« أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه ··· » ·

وجاءت النقمات الخالدية على غير ما هو مألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام ·· فخلعت القلوب ، وصكت الركب ، وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس والروم ، وأتت انتصاراته متتابعة ، فلا ينتهي المسلمون من فرحة بنصر ، حتى يأتيهم البشير بفرحة نصر جديد ، مما جعل أبا بكر يقول وهو يزف للمسلمين أنباء النصر :

« يا معشر قريش ·· عدا اسدكم على الاسد فغلبه على خراذيله ··

اعقمت النساء ان يلدن مثل خالد ؟ » •

وان كان ذلك كله لم يمنع الكاتب من الاشارة الى أن في تاريخ خالد صفحة كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب : كاحراقه للمرتدين ، وما صنعه مع بني يربوع وزعيمهم مالك بن نويرة ، وزواجه من امرأته ليلى •• لانها لم تضف الى فخاره العسكري كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته للام •• أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه يقبله أناس ، ولا يقبله آخرون •

وهناك قضية أثارها بعض الواهين من المؤرخين ، واتخذوا منها محورا للجدل ، وحملوها أكثر مما تحتمل •• تلك هي قضية : عزل خالد في أعقاب تولي عمر للخلافة ، واعتبروا أن هذا ناجم عن صراع قديم ، وحقد دفين ، نشأ بين خالد والفاروق منذ أن تصارعا ، فصرع خالد عمر ، وكسر ساقه ••

فانبرى الأستاذ العقاد ـ وهذا ديدنه ـ للرد على هؤلاء المغالطين ، وكشف الحقيقة المبرأة من الخلط والجهالة ، وبين أن هذا الذي ادعوه لا يتلاءم مع خلائق عمر ، لانه لم يكن هناك من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعته لنياته من عمر ، وأبعد شيء عن الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس الفاروق ، أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الاشباه والنظراء ، وأن ما حدث لخالد لم يكن عزلا من امارة ولاه اياها الصديق ، وانما من امارة متفق عليها بين الامراء يوما بعد يوم ، وان أبا عبيدة بن الجراح كان أحق بالامارة من خالد في موقف التسليم والمسالمة ، واستلال الحقود ، وضمد الجراح ، وتقريب القلوب •• فهوادة أبي عبيدة أنسب في هذا الموقف من ضربات خالد •• فصواب التاريخ وصواب الفاروق قد تلاقيا ها هنا باسناد الامر الى أبي عبيدة في أوانه المقدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم ••

وعلى هذا •• فقد كانت ولاية أبي عبيدة ، وعزل خالد سنة عمرية ، ولا يتنافى ذلك مع رأي عمر الثابت في أبي عبيدة •• اذ كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الاولين ، كما لا يتعارض ذلك مع بعض المآخذ التي حسبها الفاروق على خالد ، وحاسبه عليها كما كان يحاسب جميع ولاته ، وهذه سياسة عمرية حسبت لعمر ولم تحسب عليه ••

وقد اعترف خالد بنزاهة عمر ، وبرأه من كل ما يوهم بغضه وتعديه، وذلك في قوله لابي الدرداء في مرض وفاته :

« قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا ، وحضرني من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل •• كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث الي من يقاسمني مالي ، حتى أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ، ومن شهد بدرا ، وكان يغلظ علي ، وكانت غلظته على غيري

نحوا من غلظته علي ، وكنت أدل عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله ٠٠ فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ٠٠٠ » ٠

واعتبر الكاتب أن قمة البطولة في الحرب وصل اليها خالد في معركة « اليرموك » ، ولن يكون له مرتقى بطولي في الحرب أكثر من ذلك ، فبقيت له بعد قمة العظيم ٠٠ الظافر ٠٠ الجسور ، قمة العظيم ٠٠ الصابر ٠٠ المطيع ٠٠ وقد كان !!٠

وفي الحديث عن عبقرية خالد الحربية : وضعه الكاتب على القمة بين القمم ، وصاحب همه دونها كل الهمم ، فمقامه في الطليعه بين عباقرة الحرب ، ومكانه في المقدمه ممن سلكوا هذا الدرب ، لانه كان نمطا فريدا بين القواد ، يمزج الفن بالبديهه ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، ولم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال ٠٠ جدد وابتكر ٠٠ وحارب بالقريحة الملهمة ٠٠ واعتمد على قوة الايمان وهمه الامل ، ولم يغفل عن القوة الادبية يعزز بها جيشه ، وكان هو نفسه مادة لتلك القوة ٠٠ ولم تفته العظة في موضعها يطرق بها الاسماع ، وتنفتح لها القلوب ، وتعمل عمل السحر في النفوس :

« ان الصبر عز ، وان الفشل عجز ، وان الصبر مع النصر » ٠

وساق الكاتب نماذج متعددة من اراء وتحليلات وتوجيهات خبراء الحرب في العصر الحديث ٠٠ فاذا بكل ما قدموه قد سبقهم اليه سيف الله ٠٠ خالد بن الوليد ٠٠

فلم تفته سمة من سمات القيادة ، لانه كان قائدا من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه ٠٠ فلا عجب اذن ان يقول في أخريات عمره :

« ما ليلة يهدى الي فيها عروس انا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام ٠٠ أحب الي من ليله شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدد ٠٠ فعليكم بالجهاد » ٠

والتشابه بين خالد وعمر لم يكن قاصرا على قسمات الوجه ، وطول القامة الى درجة تعجز قصير النظر عن التمييز بينهما ٠٠ فقد ربط الكاتب بينهما في « مفتاح الشخصية » ٠٠ وكما سبق في عبقرية عمر أن جعل « صفة الجندية » هي مفتاح شخصية الفاروق ، فانه في هذا الكتاب جعل « السليقه الجندية » هي مفتاح شخصية خالد ، وهذا لا يتعارض مع ما بين الرجلين من فارق في الخلق والتفكير ، لانه فارق لا يخرجهما عن طبيعة الجندية ٠٠٠ فعمر كان جنديا في أخلاقه الوازعة الحاكمة ، وخالد كان جنديا في أخلاقه الدافعة الهاجمة ، وتغلب على الفاروق من مزاج الجندي الناحيه الروحية ، أو ناحية الضمير ٠٠ وسيف الله تغلب عليه ناحية الحيوية ، أو ناحية البنيان والتركيب ٠٠ جندية الفاروق موزوعة ، وجندية خالد كانت مدفوعة ٠٠ جندية الفاروق كانت تميل الى الشظف

المختار ، أما جندية خالد فكانت تميل الى المتاع المباح ، وتجنح به الى المتعة في أيم الدعة ، كما تجنح به الى البطش في مقام الجلاد والعناد ، وتميل به قوته الحيوية تارة الى لقاء الحسان ، وتارة الى لقاء الاقران ..

واعتبر الكاتب أن حب خالد للمتعة ناشيء عن حبه للجهاد ، ومتعته ليست الا متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ، ويتزود منها لجهد جديد .. وليست متعة المتهافت الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ، ويستكين اليها ، ولا يفيق من سكرتها .. هي متعة القوي اليقظان ، وليست بمتعة الضعيف المستنيم .. يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير ..

وطبيعة خالد القوية في ميادين النزال لم تنسه طابع الرفق اذا وجد له مجال .. فقد روي عنه أنه قال لابي عبيدة حين سمعه يتناول رجلا بشيء :

« اني لم أرد أن أغضبك ، ولكني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا » .

وبعد أن ملأ خالد سمع الزمان وبصره ، وبعد حياة حافلة بالامجاد ، وشوط طويل على درب الكفاح والجهاد ، وانتصارات للبطل هزت الدنيا بعد قوة عزم وطول جلاد .. قضى سيف الله أيامه الاخيرة بعد عزله بين أهله وولده في مدينة حمص ، رزأته المقادير خلالها بموت نحو أربعين من أولاده عام الطاعون ، كما تعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون ، حتى انقرضت ذريته ، وجاءت ـ بالعجب ـ نهايته : اذ مات على فراشه بعد كل هذه الزحوف ، وقابلته في الميادين الحتوف ، وعمت جسده الجراح ، ولم يترك وراءه من متاع الدنيا غير قوسه ، وغلامه ، وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله ، حتى قال فيه عمر : « رحم الله أبا سليمان .. كان على غير ما ظننا به .. كان والله سدادا لنحور العدو ، وميمون النقيبه » وأذن للنساء في البكاء على خالد ، قائلا قولته المشهورة : « ... على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » .

رحم الله خالدا ..

لقد مات مطمئنا الى نهاية حياته ، لا يكره منها الا أنها انتهت به على فراشه !!.

ورحم الله العقاد ..

لقد أعطى كل عبقري حقه ، ووفاه قدره ، ومات مطمئنا على صدق ما كتب ، ولم يؤسفنا الا أن قلمه قد توقف !!.

مهدي عبد الحميد مصطفى

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الاسلام ...

وكان يلي خراسان لملوك الدولة الأموية ، فخرجت بها خارجة أهمته (١) ، فقيل له : « ما يهمك منهم ؟... وجه اليهم وكيع بن أبي مسعود فانه يكفيكهم » . فأبى ، وقال : « لا ... ان وكيعا رجل به كبر يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة ... » (٢) .

وهذه كلمة من كلمات القائد العربي تنبيء عن كثير :

تنبيء عن ملكة القيادة فيه ، وتنبيء عن ملكة السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ...

فالحق ان شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر (٣) قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فانما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين في المكان الذي يتلاقيان فيه ...

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء ، ولكن البلاء الأكبر انما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والاهمال شرا على تلك الدول

---

(١) الخارجة واحدة من الخوارج ، وهم المتمردون على السلطان ، أهمته : أقلقته .

(٢) الغرة : الغفلة .

(٣) سبر قوته : اختبارها .

المتصلفة من الاستهوال والفزع . بل كان الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر الى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت في الأعضاء ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان ...

● ❋ ●

كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة السيد المبجل الى الغوغاء المهازيل (١) الذين يحتاجون اما الى العطاء واما الى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث الى النبي العربي بشرذمة من الجند تأتيه به في الأصفاد ! ... وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب في معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة . فاتفق في بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسي مهران بن بهرام ، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده . فقال له : « ان العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا ! » ،فجاراه القائد الفارسي مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : « صدقت لعمري ! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم ... فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون في صفوفهم ، وسألوه : « كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟ » ... فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم : « دعوني فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم ... فان كانت لهم على خالد فهي لكم . وان كانت الأخرى لم يبلغوكم ــ أي المسلمون ــ حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون ... » .

وسخفوا (٢) في طلائع وقعة « أليس » فلم يحفلوا بجيش

---

(١) المهازيل : الضعاف .

(٢) سخفوا : رقوا وضعفوا .

خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الــذي هيأوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ··· ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام ·

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور في مواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه في أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم الى الصحراء ··· فان أوغلوا في بــلاد الدولــة الرومانيــة فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم · فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هي تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد ···

● ❋ ●

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم ··· فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغي أن لا يحصل ، لــولا أنها فلتــة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار ··

وبعضهم يلتمس العلة فيقول : « انما هي وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال » ، أو يلتمس العلــة فيقول : « انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة » ·

وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه ···

فالمصادفة لا محل لها في حوادث الوجود ، ولا تطرد في قتال بعد قتال ، من جوف الصحــراء الى عمران العــراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقية والصين ·

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزهــا عن النصر ولكنه لا يقيم دولــة أخرى لــم تتجمع لها أسبــاب النهوض والتمكين ·

والعقيــدة قوة لا غناء عنهــا بقوة أخرى لمــن يفقدها ،

ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد • وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ••• ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » •••

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص (١) لهم من الرجوع اليها لفهم الغلبة الاسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ،وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وان البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التي توهمها المؤرخون الأوربيون ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشي (٢) منهم العرب والمسلمين •••

❋ ★ ❋

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية ان حروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع (٣) ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق ، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار •

---

(١) لا محيص : لا مفر •
(٢) لا نحاشي : لا نستثني •
(٣) القسي : جمع قوس يذكر ويؤنث •

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها في اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة ٠

فمن الخطأ « أولا » أن تستخف بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح انها كانت هي كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال ٠

فالذي لا ريب فيه ان الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبدا بين عادية ومعدو عليها ، وان البدوي قد عاش زمنا كما جاء في التوراة « يده على كل انسان ويد كل انسان عليه » ٠ فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى « حاسة الحرب » أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل ولا نهار ٠ فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار ٠

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات ٠

* * *

ومن الرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات انهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الادبار ، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع في روع صاحبها انه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم ٠ فهو في حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر ، وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم في حينها أو بعد حين ، ويتحول الى الوراء كما يتحول الى الشمال أو اليمين ، طوعا لأمر مقصود وجريا في عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش

المنهزم في سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل ...

ولن تخلو العصابات المغيرة ـ مع طول المرانة ـ من علم باصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت (١) والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات ، وهي على بساطتها اصول لا ندحه (٢) عنها في أكبر الميادين وأصغرها على السواء .

هذا ان صح ان حروب العصابات هي كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم .

وذلك غير صحيح ...

فالعرب قد عرفوا في حروبهم التي وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والاقسام ، وقيل ان جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس ، وكان في الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة .

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التي لم تكن على شيء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التي تساوي في عددها بعض جيوش القتال في عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثاني (٣) بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان .

---

(١) التبييت : الايقاع بالعدو ليلا .

(٢) لا ندحة : ليس ثمة ما يبرر اغفالها ـ لا بد منها .

(٣) أيام العرب تطلق على الوقائع التي كانت بينهم في الجاهلية ، وقد عد أبو الفرج الاصفهاني فيها ألفا وسبعمائة يوم وفي يوم (الكلاب الثاني) انتصرت تميم .

على ان البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضــارة في عصور الجاهلية العربيــة ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهــم في الفرق المتطوعــة على حالي الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانا كتيبتــان من الجيش الفارسي همــا الشهباء والدوسر أو « الدوشير » بمعنــى الأسديــن شعــار الدولــة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربي الى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج اليها في تعبئة الجيوش وللفطنة الى المخاوف التي يتقيها في مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة ٠

وقد تبين هذا فعلا في وقعة ذي قار التي تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية ٠ فان العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبــر بفنون الزحــف والتعبئة مــن قــادة الجيوش النظامية ٠ فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبــة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهــم بالجيوش الفارسية : بعثــوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهــم القدير هانيء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلي عــن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان ، فوافقتهــم ايــاد وبرت بوعدها فولت من الميدان في أحرج الأوقات ٠٠٠

ولما أصبــح يوم الواقعــة الحاسمة أقبــل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا مــن ذلك الجيش الزاخر وتلك العــدة الوافية ، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحرب » في اصطلاح هذه الأيــام ٠ فقــال ربيعــة بــن غزالــة السكونــي : « لا تستهدفوا (١) لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا

---

(١) لا تستهدفوا لهم : لا تقفوا بحيث تكونون هدفا ظاهرا لهم ٠

كراديس » (١) « فاذا أقبلوا على كردوس شد الآخر » • وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة » (٢) • وقال يزيد بن حمار : « أكمنوا لهم كمينا » • ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الخبيء وأوصوه أن يظهر حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلة أياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم واقبال المدد الى خصومهم ، مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات •

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والانفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة امرأته — أي حزامها — فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته •• وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباء والشعراء في التذمير والتحريض فذهبوا جميعا يرددون قول قائلهم : « المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره » •

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ، ثم التحم الفريقان وحمي الوطيس وظهر الكمين في أوانه وولت اياد فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التي فوجئوا بها على غير رقبة (٣) ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش (٤) العربي كله فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكتب النصر لأولى الفريقين به في ميزان الفن العسكري الذي يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادي

---

(١) تكردسوا كراديس : تجمعوا كتيبة كتيبة •

(٢) بالشدة : الهجمة •

(٣) رقبة : ترقب وانتظار •

(٤) كوكب الجيش : معظمه •

دون غيره ، وهو العدد والسلاح ·

اذ الحقيقة ان غلبة العرب في يوم ذي قار انما كانت غلبة لليقظة على الغفلـة ، وللكفاية على العجـز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربي الصحيح على النظم التقليدية التي لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبريـاء المزعومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر في الحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس في بعض العدد التي لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف·

❋ ★ ❋

وليس في وسع عالم من علماء الحـرب في زماننا هـذا أن يأخذ عليهم خللا في خطتهم لم يلتفتوا اليـه أو يحصي عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجـوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع · و (٢) رسم الخطة · (٣) تنظيـم الجيش في مواقفه · و (٤) تنظيم الجيش في حركاته · و (٥) اذكاء العزيمة في نفوسه · و (٦) اضعاف العزيمة في نفوس خصومه · وهذه كلها هي صفوة لباب الحرب في العصر الحاضر وفي العصور الغابرة ، وفي جميع العصور الى آخر الزمان ·

ويبدو لنا أن مزيـة الفرس والروم في أنـواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل في ميادين الاشتباك والالتحام ، اذا صح أن لها الرجحان في مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد · لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية ان بعض الفرسان البواسـل كانوا يترجلـون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم (١) تبرما بها وتخففا من ثقلها ولا سيما في أيام القيظ أو في المواضع الوعـرة التي تصعب فيها حركـة المدرعين في الشكـة السابغة (٢) ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدما لهم ليحملوا لهم

(١) الشكة : السلاح الذي يلبس ·

(٢) السابغة : الواسعة الوافية ·

شكتهم الى حين الحاجة اليها ، وجاء في كتاب فيجتيوس انجيل الحرب عند الرومان الأقدمين ان الجنود كانوا يضيقون ذرعا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها ، ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال ·

❋ ★ ❋

وعندنا ان العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشأتهم في البادية واقترابهم من دول الحضارة · ونعني بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش في ادارة الحروب ·

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة · ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما في موضعها ، فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات الى احكام التنظيم في طريقة الجيوش ·· وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذي لا يحسنون التجديد فيه ··

ومن المحقق ان قبائل العرب التي أقامت في الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين ، اما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التي كانت تقيم في عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية،وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التي يدين بها جميع هؤلاء ·

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والانصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التي تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية ·

● ❋ ●

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار …

وانما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها ٠

كانوا متفرقين بغير باعث الى الوحدة والنهوض ، فجاءتهم الدعوة الاسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم ٠ فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبي عليه السلام بيوم « ذي قار » وهو يدعو العرب الى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب ٠

قريــش ومخــزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها الى حديثها ٠

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم في عاصمة الحجاز والى جوار الكعبــة التي يحج اليهــا العرب ، تبركا بحرمتها ولياذا (١) بأصنامها ، ويحملون الى أسواقها أزواد (٢) الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون اليها ازواد القوت وسلع التجارة ٠

وكانت قريش تنتقل الى بلاد العرب كما ينتقل العرب اليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان في الشتاء والصيف : احداهما الى اليمن والاخرى الى الشام ، وكانت تضيف الى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس (٣) ، حيثما نزلت في طريقهما من ديار العرب أو من ديــار الروم والحبشة ، وسائر الامم الاعجمية كما كانت تسميها ٠

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايــا ، لأن الاستطلاع من طبيعــة سكــان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه في أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارىء داهم تفوتهم الحيطة له في حينه ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والاخبار لغير هذه الضروة التي يدعوهم اليها حب الامن والسلامــة ٠ فهــم غيورون على تراث الاباء والاجداد تفاخرا بالنسب العريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء ٠٠٠

ومع هذا الولع الأصيل في الطبيعــة العربيــة باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهي تقيم في مثابة (٤) الجزيرة كلها

---

(١) لياذا : لجوءا ، تقول (لاذ به) أي لجأ اليه ٠

(٢) أزواد : جمع زاد ٠

(٣) المراس : الخبرة والممارسة ٠

(٤) الموضع الذي يثاب اليه ٠

وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله الى جنوبه ومن جنوبه الى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهي في مرقبها الذي تطل منه على كل مـا يعنيها ...

فقلما غاب عنهـا علم عربي وصل اليه أبنـاء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا اليـه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية ...

وقلما خفي عنها فن من فنون ثقافة العرب في مصالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية .

ونظن أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم في تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت كما رأينـا كفؤا لحضارة الدولـة الفارسيـة وتجـارب قوادهـا وأساورتها .

وكذلك كانت لهم في السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهي لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية ، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الغريزة الهمجية التي لا مساك (١) لها ولا تدبير فيها .

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية ان العـالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجري على عاداتهم وخلائقهم .

عرفوا نظام الامارة التي ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه ...

وعرفوا نظام الامارة التي يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل في قضايا الرعية بمعونة ذوي الرأي منها « الا أن يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره ، وهو النظام الذي جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبـه زيد بن

---

(١) لا مساك لها : لا ضابط لها .

حماد من بني أيوب ·
وعرفوا نظام الامارة التي يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها الى الموطن الذي تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين · وعلى هذه السنه اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وآذل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا ان نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوي ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الاخرون ، ولكنا نأتي تبعا فيختار لنا » · فقصدوه فملك عليهم حجرا أمير كندة،وهو أبو امريء القيس الشاعر المشهور ·
وعرفوا الحمايات على أنواعها : حماية الامارة التي تستعين بجيش أجنبي ، وحماية الامارة التي تعتمد على جيشها ، وحماية الامارة التي تدين لدولة واحدة ، أو تدين لدولتين · كما حدث ذلك في ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد ·

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد ، ورئاسة الرحل الذين يرعون الابل والشاء ، ورئاسة أهل المدر (١) الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم ···

❋ ★ ❋

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في مواضعها وتقتبس منها ما هي في حاجة اليه ، ولكنها لم تأخذ بنظام الامارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر (٢) ولا نظام أهل المدر لانها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل

(١) المدر : القرى ، والعرب تسمي القرية مدرة ·
(٢) أهل الوبر : البدو ·

اليها حاجة أو متجرة وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها ٠

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين ، وانما يؤول الرأي الأخير فيه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن في القبيلة ، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التي ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضا بالحقيقة ٠ اذ الحقيقة أن المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء ، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء ٠٠٠

ومن زكانة (١) الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الركاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من الحضر والبادية ، وهي الدين واللغة والتجارة المشتركة ٠

فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أسواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها ٠

● ❋ ●

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهى الشرف الى عشرة بطون هم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهي اعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة (٢) والحجابة واللواء ، وكانت لبني تيم الديات (٣) والمغارم ، وكانت لبني مخزوم القبة وهي مجتمع الجيش والأعنة وهي

(١) الزكانة : الفطنة ٠
(٢) السدانة : خدمة الكعبة ٠
(٣) الديات : جمع دية ، وهي المال يعطيه أهل القاتل ٠

قيادة الفرسان ، وكـانت لبني عدي السفارة ، ولبني جمح الأيسار أو الأزلام (١) ، ولبني سهـم الحكومـة والامـوال المحجرة ، وظلوا يتولونها جيلا بعد جيل الى ظهور الاسلام ·

ولم يكن لهذه « الوظائف » الموزعة شأن واحد في جميـع الأوقات والأحوال ، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذي يتولاها وعلى حسب القوة التي يكون عليها بيته عنـد ولايته اياها · ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به « جبر الخاطر » والارضاء ·

وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية الثانوية في حكومتنا الحاضرة ، ولم تجد بينها « سلطات » فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات ، وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطـة السياسيـه لأمية ، والسلطة العسكرية لمخزوم ·

من بني مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد ــ بطـل هذا الكتاب ــ وكانت نشأته في أعرق بيوتها وأعلاهـا وأشرفها وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية · · ·

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيري تشرفا بالانتساب الى الفرع الذي أناف على الأصول · · ·

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد (٢) ، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى ·

وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار (٣) ،

---

(١) الايسار والازلام : السهام التي تستخدم في الميسر ·

(٢) وفيه نزل قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا » ·

(٣) كانت بين قريش وقيس عيلان وقد حضرهـا النبي صلى الله عليه وسلم وهو صبي ·

وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ...

* * *

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه ، له بيت للضيافة يأوي اليه من شاء بغير استئذان .

وكان عمه أبو جذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبي عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية ...

أما الذي فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء في بعض الروايات . فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين . ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفي أصحابه في السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد.

ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها . ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار ، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين .

● * ●

وقد تبينت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الاسلام وبعده فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليماني واشتركت قريش كلها في بناء بقية الأركان ...

وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف

مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد ...

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والاموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة في ميزان الفخار ...

ولا جرم يأخذون الامر مأخذ الانفة والخنزوانة بينهم وبين بني عبد مناف حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم .

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال ابو جهل : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا (١) وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحازينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ... فمتى ندرك هذه ؟ » .

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجد الذي يجمع هاشما وامية وعبد الدار ، كأنه يستعلي في كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذي يجمع بينها وبين غيرها .

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمد واترك وانا كبير قريش وسيدها ؟ » . ففي ذلك يقول القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ونحن نعلم الآن أي عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية في طريق الاسلام أن نرجع الى الآيات التي نزلت في رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم في آبائهم وأجدادهم ، فلم ينزل في رؤساء قبيلة مثل ما نزل في رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم في ردود القرآن على أقوالهم ، وهي أقوى ردود عرفت في السور المكية الأولى ، على ما جاء

---

(١) حملوا فحملنا : من الحمالة (بالفتح) وهي الكفالة أي كفلوا الناس وكفلناهم .

في الآيـات الكثيرة مـن سورة « ن » وسـورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى في سورة الحجر وعبس وتولى ·

● ❋ ●

وكل أولئـك فحواه شيء واحـد ، وهو أن بني مخزوم باءوا (١) بأسباب المحافظة على القديم جميعا حـين تصدى الاسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذي انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان ·

والناس يختلفون في تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون في تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض · لأن البيئـة مستودع شامـل يوجد فيه الحسن والرديء ويأكل كل منه على حسب مأتـاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه ·

فاذا قيل سيد مـن سادات قريش أو نموذج مـن نمـاذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات ·

ولكننا مع هذا قـد نحصر الخصال المشتركـة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة في الشذوذ والاستثناء ·

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوي الأحـلام في عـلاج المشكـلات وتدبير الحيل ومصانعة (٢) الناس والأيام ·

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما

---

(١) باءوا : رجعوا ، والمراد انهم تحملوا أعباء المحافظة على القديم ·

(٢) مصانعة الناس : رشوتهم واستمالتهم ·

وصلت اليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة في غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد ٠

★ ★ ★

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التي كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار ٠

وقد وجد في أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى في أموال الربا شيئا من الدنس يقاربه في أحوال ويستبعده في أحوال أخرى ٠

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها(١) ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون ، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ٠

وكذلك وجد في أسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها فقال لقومه : « يا معشر قريش ٠٠ لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد » ٠

وكلهم قرشي جاهلي من طبقة السادة وأصحاب المال ٠

فحين نقول أن خالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التي لا غلو فيها من

---

(١) أرباضها : أرباض المدينة : ما حولها ٠

هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة في خليقة مـن تلـك الخلائق ، فذاك اذن خاصته التي يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال ٠

* * *

ولا يتم الكـلام على تراث بني مخزوم حتى نضيـف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص ٠

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالهـا مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقـال لأبي العباس السفاح : ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين ٠

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التي نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبي ربيعة ٠ فقديما كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال ٠

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسـلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهليـة ، فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكـان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين ٠

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة أخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور واناث ، ومنهم أختان ...

وقد تقدم اجمال القول في شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرؤوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم .

كان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض (١) ، والخدم والجواري والعبيد ، وسمي من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش .

وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا » .

ويروي سفيان الثوري أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروي ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال .

ولكبريائه في جوده أو جوده في كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لاطعام الحجيج .

وكان يأنف لنفسه في الجاهلية أن يرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها في تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير ناه ، وقيل أنه قطع يد السارق على سبيل القصاص .

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول (٢) والاقدام : ضربة من ضرباته في موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل

---

(١) العروض : الامتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيوانا ولا عقارا .

(٢) القوة .

أن يعرف العالم ضربات خالد ، وذلك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمة التي كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان • فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الأولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم ترع (١) • اللهم لا نريه الا الخير » • ومضى في أثره الهادمون غير متهيبين •

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبي جهل أنه كان من أفقه الناس لمعاني الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب في أيامه •

« قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد يصلي والوليد ابن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم ، فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن • والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى •• ثم انصرف الى منزله » •

فقالت قريش : « صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم • فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : « تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر مني فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : « كلا » ، في كل سؤال •

حتى أعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه في تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو

---

(١) لم ترع : لم تخف •

السحر المبين ••• فذاك اذ يقول القرآن الكريم : « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر » •

واختلف المفسرون في تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذي قيل أنه نزل فيه •

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعي وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه (١) ثماني عشرة من مولده •

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها في عنقه ، وهي اللحمة المدلاة • ويخالفهم آخرون فيقولون أن الرجل الذي كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة (٢) •

وفي رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال أنه هو الفاحش اللئيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير•

الا أن الذي يعنينا فيما نحن بصدده ان الوليد لم ينسب قط الى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة الى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببني المغيرة ظاهر حتى في بعض الفروع البعيدة • فان عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد ، وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق في أيامنا هذه كثيرا بين أبناء العمات والأخوال ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمي بينهم بالوحيد •

وعلى أية حال قد نشأ خالد في بيت الوليد بن المغيرة وهو سيد بني مخزوم ، وأحد السادات المعدودين في قريش ، وصاحب الكلمة التي يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح اليه من شرعة أو دين •

أما أمه فهي لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهي أخت ميمونة

---

(١) ادعاه : نسبه اليه واعترف ببنوته •

(٢) ثقيف وزهرة : قبيلتان •

أم المؤمنين زوج النبي عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التي تزوجها جعفر بن أبي طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم علي بن أبي طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوي الأخطار ومقاديم (١) العشائر النابهين ٠

وندر في بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه ٠

والأقوال في سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهي الى قول يمتنع فيه الخلاف ٠ فمن المؤرخين من يقول أنه مات وله من العمر ستون سنة ٠ فاذا كان قد مات في السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة فقد ولد اذن في السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة ٠

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به ان خالدا كان صغير السن في عام الفتح ــ فتح مكة ــ كما يفهم من تلقيب أبي سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه ٠

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقبان عبور الكتائب والقبائل في يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر في بني سليم ٠ فسأل أبو سفيان : من هذا ؟ قال العباس : هذا خالد بن الوليد ٠ فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفي حنقه : الغلام ؟ قال العباس : نعم ٠ كأنه لقب كان معروفا بين شيوخ قريش ٠

والرجل لا يقال له «غلام» وهو في نحو السادسة والأربعين ٠ وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين اذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقي بحكم العادة والتردد على الأفواه ٠ فاذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتي ثماني وعشرين وثلاثين قبل الهجرة ٠

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير ٠

---

(١) مقاديم : جمع مقدام وهو الرجل الكثير الاقدام على العدو ويجوز أن يريد (وجوه العشائر وأشرافها) ٠

وهي قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة ، وانما يتصارع الندان أو المتقاربان • وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ ••

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعا انما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح اذن أن يكون مولده في نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة ، ولا مانع اذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى في الرابعة عشرة مثلا زميلا له في السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذلك ، لأنه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه •

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، اذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان ــ فرسان قريش ــ في وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم : فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره •

وقد أسلفنا ان بني مخزوم كان لهم في الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هي خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال ، والأعنة هي الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قريش جميعا هي آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه •

وفي أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا في تصور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهي في الغالب مفيضة (١) في وصف أولئك الأبطال •

تلك القصة هي ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبين عمر ابن الخطاب ، حتى كان اناس من ضعاف النظر يخلطون بينهما

---

(١) مفيضة : مسهبة مفصلة •

من قريب ، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض .

وخلاصتها ان علقمة بن علاثة لقي عمر بن الخطاب سرا فقال له : مرحبا بك يا أبا سليمان ... ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم . فمضى علقمة يقول : ما يشبع، لا أشبع الله بطنه .

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالدا : « ماذا قال لك علقمة .. فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام . وكرر عمر السؤال : فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئا ... فقال علقمة كالموسع له من حرج (١) : حلا أبا سليمان (٢) ... ولم يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث .

ومن هنا تفهم ان خالدا كان طويلا بائن الطول ، وانه كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل الى البياض .

وغني عن تواريخ المؤرخين ولا جدال ان خالدا قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التي زعم اناس انها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب انه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه ، وهي صغيرة تنبيء عن دراية باكرة بفنون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر في مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها وسرعته في مآزق النزال الى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك .

وغير بعيد انه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدا في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد

---

(١) كالموسع له من حرج : كأنما يريد أن يفتح الطريق لخالد لكي يخرج من الحرج الذي وقع فيه .

(٢) أبو سليمان : كنية خالد بن الوليد .

الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد • فقد جاء في بعض الأحاديث ان خالدا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه ، وهو أغنى انسان في مكة أن يسيغ هذه الآكلة الاعرابية ، مع يساره وافتنان أهله في الأطعمة الحضرية •

قال ابن عباس رواية عن خالد انه دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة الا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه • فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه • فسأله خالد : أحرام هو ؟ قال : « لا ولكنه طعام ليس في قومي فأجدني أعافه ••• » قال خالد : « فاجتررته الي فاكلته ورسول الله ينظر » •••

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى في كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثه ، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب في المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ انه يسمح لابناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أحرى بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب •

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضة المقصودة ان صح ما رجحناه • فلعله سافر كثيرا في الجزيرة قبل الاسلام ، ولعله عرف في تلك الأسفار دروبها المعصية التي كان يطرقها من العراق الى الحجاز ومن الحجاز الى اليمن ، ومن نجد الى الشام ، وبعضها كان يعتسفه (١) على عجل بغير ادلاء (٢) •

ولم تكن بخالد ولا باخوته حاجة الى التجارة لكسب العيش

---

(١) يعتسفه : يقتحمه •

(٢) أدلاء : جمع دليل •

وتحصيل المال ، اذ كان أبوه على تلك الثروة التي لا مزيد عليها في البلاد العربية • وكانت ثروته أشبه شيء في عصرنا هذا بثروة المصارف التي تعمل في صفقات القروض والربا ومضاربات الأسعار • أما الثمرات والخضر في مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البلاد القصية للبيع والشراء • وانما قصاراها أن تباع في الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادي القادرة على شيء من الترف والمتعة ، ولا سيما في أيام الأسواق والحجيج • ولهذا فسر بعضهم وصف بنيه «بالشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا في صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف في شؤون المعاش • فان قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففي غير هذه الأغراض أو في غير حاجة ملحة الى الاتجار ، وانما هي الدربة والتمرس بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها ، وقد ينفقون في ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحد لهم في الضيافة وبذل العطايا والهبات •

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا انما هو في ارسال خالد الى البادية قصدا لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين •• فهذا ، وان جرت به عادة بعض الأشراف في حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة الوليد ابن المغيرة وبنيه « الشهود » على احتمال الشهادة للمعنى الذي قدمناه •

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، والذي لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج ـ ان خالدا قد نشأ حيث نشأ في الحاضرة أو البادية مستعدا للخشونة مستطيعا لمعيشة الأعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد في أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضلاعة العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهي ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال •

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التي لا مناص من أدائها ،

وآية ذلك انه مات على فراشه في نحو الخامسة والخمسين ، وليست هي بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة اخرى ·

واذا تجاوزنا هذه المظنة ، وهي كافية ، ألفينا في تراجم الأسرة كلها ما ينبىء عن عوارض (١) الأسر التي تهيئها الأقدار لانجاب العباقرة في شتى المواهب والمزايا ·

فهذه الأسرة الغريبة تحشر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس في تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهن مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم الى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الاسرة كلها في سبيل انجاب العبقرية منها ·

وكانت هذه العوارض مشاهدة في اسرة خالد وفي اخوته على التخصيص · فذكر كتاب الاستيعاب في أسماء الاصحاب : « ان الوليد بن الوليد كان يروع في منامه مثل حديث مالك سواء في قصة خالد » ·

وعن مسند بن أبي شيبة ان خالد بن الوليد كان يفزع في نومه فشكا الى النبي عليه السلام · فقال له : « ان عفريتا من الجن يكيدك » ·

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى في شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الأخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص في رحلة الحبشة رسولين الى النجاشي لتسليم المسلمين بها الى قريش ·

وكان مولعا بالخمر والغزل وسيما محببا الى النساء · فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب ونظر الى امرأة عمرو نظرة مريبة ·

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه في أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها في هذا المسكين الذي ابتلي بالثمن الفادح والضحية الكبرى · فخالد بن الوليد ــ شرف بني المغيرة ــ لم يفتنه الميل

(١) عوارض : ظواهر ·

الى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط من عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبي بكر الصديق في صدد الزواج المعجل في غير حينه ، فسبى (١) امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج في حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنة الجودي في دومة الجندل ، وقيل انه فقد أربعين ولـدا في طاعون الشام وهـو بقيد الحيـاة لما يجاوز الخمسين بكثير ٠

وتلك في جملتها شواهد العوارض التي يقرر النفسانيون المحدثـون انها سمات العبقريـة في منابتها ، ومنابتهـا هي الأسر التي تنجبهـا وتبـذل أثمانهـا قبل أن تنعـم بمجدها وفخارها ٠

وكما ظهرت هذه العوارض في لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت في بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذي كان مثله يراع في رقاده ٠

فهذا الأخ الكريم كان مـع جيش المشركين في وقعـة بدر فأسره المسلمون ٠ وطال الكلام في فدائه لغناه وعداوة أهلـه للاسلام ، فطلب أسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبي ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهي درع فضفاضة وسيف وبيضة (٢) ٠ وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك في أسر المسلمين ٠ فلما تم فداؤه وذهب الى أهله أعلن اسلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمـره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ ٠ فقال : كرهت أن يظن بي انني جزعت من الاسار ٠٠ وصبر على التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبـي مشيا على قدميه ٠٠٠

هذه أيضا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التي

---

(١) سبى : أسر : وستأتي القصة في حروب الردة ٠
(٢) البيضة : الخوذة من الحديد ٠

تأبى لخلائقها ان تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والاغراب والمخالفة للمألوف ٠

وهي في أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذي لا مراء فيه،ومعدن البطولة التي تكتب لصاحبها وهو في الاصلاب(١) ٠

فها هنا نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها،وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصدق والاشاعة معا يتوافيان في دلالة واحدة في تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التي سبق ذكرها واحدة ٠ وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا انها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شيء ٠ وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التي يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك ٠ ففي اليواقيت للقطب الشعراني انه حاصر قوما من الكفار في حصن لهم فقالوا : تزعم ان دين الاسلام حق ؟٠ فأرنا آية لنسلم ٠ فقال احملوا الي السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضره ، وتردد مثل ذلك في كتاب الاصابة فروى عن مصادر شتى انه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه في راحته ثم سمى وشربه ، ولم يؤثر فيه ٠

وقد سمعنا نيتشه ــ بشير السوبرمان (٢) في العصر الحديث ــ يقول : ان السم الذي لا يميتني يزيدني قوة ٠٠٠

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار ٠

---

(١) الاصلاب : جمع صلب وهو الظهر والمقصود تكتب لصاحبها وهو لا يزال جنينا ٠

(٢) السوبرمان : الانسان الكامل ٠

اسلام

كان اسلام خالد ضربا من التسليم ...

كان ضربا من التسليم بمعناه « العسكري » المصطلح عليه في عرف القادة ورجال الكفاح .

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصروالهزيمة ،الخبير بموضع الاقدام وموضع الاحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها .

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل (١) ، ولا الجازع المنخذل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى (٢) اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه انه لن يغلبه الا الله ، وكأنه كان يقول في قرارة ضميره : أيهزمني أحد وليس له مدد من النبوة ؟ أيعلو سيف على سيفي وليس له سر من السماء ؟ .

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله .

وقد كان على ذويه في بني مخزوم أن يحاربوا حربهم الى نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا لهم قبل كل جاهلي وكل قرشي وكل عربي على التعميم .

وكان معسكرهم أولى المعسكرات ان يصمد الى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بادبار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الاسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعي كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه النظام الذي به يقومون وبهم يقوم .

وقد أبلى أبوه في هذا الصراع قصارى ما في وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن

---

(١) الوكل : الجبان العاجز .

(٢) الحمادى : الغاية ومبلغ الجهد .

اشارة واحدة فيه تغني عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغني عن الاطناب في القيل والقال ·

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها في حرب الاسلام أن نقول انه قد هان عليه في هذا السبيل أن يبذل العزيزين : الولد والمال ·

ففي بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبي أبي طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه عمارة ابن الوليد ··· وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم وأجملهم في قريش ·

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبي فيمن سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم ، وفي ذلك يقول القران الكريم في سورة الأحزاب : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » ·

وبمقياس هذا البذل السخي في سبيل الذين تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهي كراهة الهرم التي تبقى الى الموت ، لأنه فوجىء بالاسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين ·

★ ★ ★

وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه ، وتحفزا فتيا يسبق به أباه ·

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة في القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة في وقعة أحد المشهورة ، وتولى الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين ·

وذلك ان النبي عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على مصافكم (١) هذه فاحموا ظهورنا ،

---

(١) المصاف : جمع مصف بفتح الميم وتشديد الفاء وهو موقف الحرب ·

فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبي وتصايحوا بينهم: « ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون » . فكانت هي الغرة التي اهتبلها خالد ، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش ، وشاع ان عليه السلام قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان ان أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال » .

* ★ *

واشترك خالد في وقعة اخرى هي وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هي أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة علي بن أبي طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التي عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ... » .

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فأعياه وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من احدى نواحيه . فلما حبطت حملة عمرو

وقتله علي بن أبي طالب ، بـات المشركون ليلتهـم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمـه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبي عليه السلام في كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل ، الى أن تحاجز الفريقان ورجـع المشركون وانصرف المسلمون الى قبة النبي ، فأوتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيـد بـن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه • ثم انقطـع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبـث هـو وعمرو بن العاص على ساقة (١) الجيش في مائتي فارس رداء للجيش كله ، مخافة أن يتعقبه المسلمون •

* * *

وتصدى خالـد مرة اخـرى للنبي عليه السـلام في سنة الحديبية وهو في طريقه الى مكة ، وكان النبي قد خرج اليها معتمرا في نحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف في القرب ، فأوجس المشركون خيفـة أن يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالـدا في مائتي فارس للقائه قبل بلوغ مكة • فدنا خالد حتى نظر الى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم في خيله وأقام بازائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا ، وكـان فيـه خيرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا ، وقلـت الرجـل ممنوع » •

---

(١) ساقة الجيش : مؤخره •

الا انه مع هذا بقي على لدده في خصومة الاسلام ومعاندة نفسه دون الاصغاء له والنظر اليه • فلما صالح النبي قريشا ودخل مكة في عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معفى النظر من رؤية شيء لا يستحبه ولا يخلي بينه وبين حربه •

كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه •

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن ان كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التي هي أقرب الى المبارزة والمناجزة منها الى المقت والضغينة • لأنها لا تعني صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه •

وهذه الحرارة حركة جياشة في النفس وليست كذلك الموات الذي تنقبض عليه النفس في الشيخوخة الفانية ، ولا كذلك الضغن الذي يتغذى بقيحه المخزون في طبيعة منغولة(١) معدومة الخير والنجدة :

مثل هذه الحركة الجياشة في النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الأتي في واديه المحيط بجانبيه ، يظل متدفعا أتيا ما بقي في الوادي وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه • ولكنه الى أمد لا محالة ، لأنه سينتهي الى مفترق الوادي فلا يجيش ولا يتدافع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع (٢) • وسيكون طريقه مع الوادي المفترق غير طريقه مع الوادي المحصور •

والوادي هنا قد افترق في مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد قريب وان لم ينته بعد الى غاية المفترق في الأرض البراح (٣) •

---

(١) طبيعة منغولة : مشحونة بالحقد •

(٢) يترع : يمتلىء •

(٣) البراح : المكان المكشوف الذي لا يستره شجر أو غيره •

افترق الوادي قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الاسلام ، وأصبح في معسكر الاسلام أخوان حبيبان الى خالد ، وهما الوليد وهشام ٠

وافترق قليلا يوم أصغى أبوه الى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذي أرابهم وأشجاهم ، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع في قلبه انه وحي السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذي يفرق بين الرجل وزوجه والولد وبنيه والسيد ومولاه ٠٠٠

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين في طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس في خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة ، وسرى في روعه ان لمحمد لسرا وان الرجل لممنوع ٠

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع واقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فاذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، واذا بصلح الحديبية يلقي السلاح من الأيدي سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار ٠

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج اليها ؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره ؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟

ومن أين له تلك المهابة التي ترد عنه الأعين والأيدي من قريب ؟

ومن أين له ذلك العون الذي يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فاذا هو ناصل (١) منها واذا هو الطارد

---

(١) ناصل : خارج ٠

وقد خيل اليهم انه الطريد المخذول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبي بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد الى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ... جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه » .

ولقد رأوه بعد ذلك في عمرة القضاء لا يتوضأ وضوءا الا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه ، ورأوهم في نظامهم ومودتهم وصدق ايمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا في الزراية بهم والاعراض عنهم ، وانقلبوا الى أنفسهم فاذا هم مرتابون في الغد متدابرون في المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون محجمون وهم المتربصون ، فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ، وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذي بصر بالقيادة في معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فاذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا الى رأي في مصير المعركة بين الجاهلية والاسلام في ساعة واحدة ، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش في اصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وفي تلك الآونة التي يشتد فيها الجذب والدفع بين الانسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التي تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعي منه البت العاجل بجوابه ، وتمسح الغضاضة التي لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب ·

قال أخوه الوليد : « ··· أما بعد ··· فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسـلام يجهله أحد » ؟ ···

ثم مضى يقول : « سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به · فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ·

فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة ·

* * *

تلك كانت هي الدعوة التي جاءت في أوانها ·

وكان اسلام خالد هو الجواب ·

* * *

فهي مراحله الطبيعيــة التي لا بـد له مــن عبورها بين الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا أن يلبي أول دعوة وهو هو في قريش صاحب معقلها المنيع ·

ولم يكن طبيعيا أن يلبي الدعوة في وطيس الحرب ومحتدم العداء ·

ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة الى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة في حينها فلا يكون الاسلام جوابه المنظور ·

فهو قد انتقل من الاصرار ، الى القتال ، الى الموادعة ، الى الموازنة ، الى الترجيح ، الى الاجابة ،ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هي مكــان العجب وهي الأمــر المخالف لطبائع الأمور ·

وقــد أسلفنــا ان الاسلام كــان في أمر خالــد ضربا من التسليم ، فنعيد هنا انه تسليم القائد في معركة نفسية وليس بتسليم القائد في معركة حسية وكفى ، ولهذا عناه أن يستغفر

له النبي ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبي ويسلكه بين صحابته ومريديه . فقال : يا رسول الله .. قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق ، فأدع الله يغفرها لي .

فأجابه النبي عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله .

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى ذلك !

فدعا النبي ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضح فيه من صد عن سبيلك .

فرضي خالد واستراح ..

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح .

* * *

وأحرى بنا أن نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التي كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبي في المدينة ليسلم على يديه ، فانه أجمل ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الأطوار النفسية التي ساورته وان لم يقصد الى الافصاح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب الى توكيدها من الشرح المقصود .

قال : «لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الاسلام وحضرني رشدي وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده الا وانصرف واني أرى في نفسي اني موضع في غير شيء وان محمدا سيظهر (١) ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقمت بازائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا .

---

(١) سيظهر : سينتصر .

(٢) عسفان : موضع بين مكة والمدينة .

وكان فيه خيرة . فاطلع على ما أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا وقلت : الرجل ممنوع . وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية . أفأقيم في عجم أو اقيم في داري فيمن بقي ؟

« وبينما أنا كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة، فطلبني فلم يجدني . فكتب الي كتابا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة » .

« فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الاسلام ، وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد أخضر واسع . فقلت : ان هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك للاسلام ، والضيق الذي كنت فيه الشرك . فلما أجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت :من أصاحب الى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن أكلة رأس (١) ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدمنا عليه فأتبعناه ؟

(١) أكلة رأس : كناية عن قلة العدد .

فأن شرف محمد شرف لنا ، فأبى علي أشد الاباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما تبعته أبدا ، فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا (١) ، قتل أبوه وأخوه ببدر • ولقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان •• فقلت له : فأطو ما ذكرت لك •• وخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي تخرج الى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة ، وهو صديق لي أذكر له ما اريد • ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علي وأنا راحل من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة •• وأدلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ـ على ثمانية أميال من مكة ـ فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم • قلنا : وبك • فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا الدخول في الاسلام واتباع محمد • قال : وذاك الذي أقدمني • فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا • فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أخي فقال : أسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت فما زال يبتسم الي حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق فقلت : اني أشهد ان لا اله الا الله وأنك رسول الله • فقال : الحمد لله الذي هداك • قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا الخير » •

الى أن قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قدومنا في شهر صفر من سنة

---

(١) الوتر بكسر الراء : الثأر والموتور : الحاقد •

ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بي أحـدا من أصحابه فيما حزبه (١) » ٠

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الأولى التي حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد ، ونحسب انها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين في طريقهم الى مكة قبيل صلح الحديبية ٠٠ يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون الى جوار البيت الحرام ، ويوم بدا له ان هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العنت (٢) من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده ، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن علقمة الكنانـي سيد الأحابيش ٠٠

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الاسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانـت مبايعته النبي على ما تقـدم قبل فتـح مكة بشهور ٠

وفي تحقيق هذا التاريخ ـ تاريخ اسلامه ـ خلاف غير قليل ، ولكن التاريخ الذي جاء في سرده المنسوب اليه أرجح التواريخ جميعا لأسباب كثـيرة ، ليس بأهونهـا ولا أوهنهـا السبب النفساني الذي يقترن بغيره ٠ فان الوقت المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسـة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام ٠ ولن نجد وقتا هـو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الـذي تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ٠ وبعده قضي الأمر ولم يبق لمكة الا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان ٠

وقد علم النبي عليه السلام جلية الأمر منذ قـدم اليـه الرفاق الثلاثة فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها ، وحق

---

(١) حزبه : أصابه من أمر ٠

(٢) العنت : التشرد وطلب المشقة ٠

للمسلمين أن يحسبوا منذ تلـك الساعة ان أولئـك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين ٠

فالواقع ان مكة قد آذنت بالفتح(١)منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، فأصبحت « المدينة المفتوحة » التي نعرفها في اصطلاح هذه الأيام ، وأصبحت قضية مغلقيها في وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط ٠

ويخطىء الكاتبون الذين يزعمون انها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة وزحف عليهـا جيش المسلمين في عشرة آلاف وأهلها معجلون (٢) عن الأهبة والدفاع ٠

فان النبي عليه السلام انما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعهدها وسطت على حلفائـه من خزاعـة ٠ ثم أشفقـت من القصاص فأوفدت أبا سفيان الى النبي يستأمنه ويسأله مـد العهد الذي أبرم بينهم في صلح الحديبية ، فأبى النبي ولـم يجبـه ، وأحس المشركون منـذ اللحظـة الأولى ان المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو ان قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطـو بخزاعة أو بعـده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة في التأجيل والمراوغة ، ولكنه التسليم الذي بدأ باسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت الى أجله المعلوم ٠

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبي صلوات الله عليه في كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عباده والزبير بن العوام وخالد بن الوليد الى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذي وكل اليه ، ونهى النبي أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال الا من صوب خالد ابن الوليد ، لأن صفوان بن أمية وسهيلا بن عمر وعكرمة بن أبي جهل رصدوا للباب الذي وصل منه وجمعوا له جمعهـم

---

(١) آذنت بالفتح : أعلمت ٠

(٢) معجلون : مأخوذون على غرة فهم غافلون ٠

فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك في هزيمة نكراء ٠

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس في جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين عن قوس واحدة ٠

انه حارب في صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب في صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب في صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ وأين يلتقي بها ان فاته لقاؤها في ذلك اليوم ؟ قالوا : انه خالد قوتل فقاتل ٠ فقال : « قضاء الله خير » ٠ ثم قال : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة ... » ٠

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون ٠

(١) لا تغزى : لا نافية ، ولذلك فالفعل بعدها مرفوع ، أي : لن يقع عليها غزو ٠

مع النبي

أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والاقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب ، مختلفون في فهم الدين وبواعث الاسلام ، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الايات على رحابة الافق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الانسان العظيم ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته التي هو اصلح لها واقدر عليها ، وهم يلتقون أول الامر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الامم وقيادة الرجال ، بل لقادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال .

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبي اياه بقدره الصحيح اية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره (١) العميق لأغوار الطبائع والافكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات في هذا الباب ، لأنه عليه السلام لم يكبره اكبار السياسي الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد ، وانما أكبره لانه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات . بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير ، ويحثون في وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم : يا فرارا . يا فرارا . فررتم من سبيل الله .

لم يكبر النبي خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانه في قومه ولكنه أكبره للصفة التي سيوصف بها في تاريخ الاسلام بعد اهتدائه اليه ببضع سنوات .

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا

---

(١) سبره لاغوار الطبائع : سبر الجرح : نظر فيه ليعرف ما غوره وعمقه .

الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة التي ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل انه ينصر قائدا هو المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره · ولكنه ولى اخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة اخوانه في الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين ·

كثير من رؤساء الامم يعرفون موضع الادليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون،ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها ان تراه في ظلام المحنة والبلاء ·

ولقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات ، وعهد اليه النبي في كثير من الاعمال الصغيرة واشركه في بعض الاعمال الكبيرة : ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بني جذيمة ، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانيء والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام ، ولو انه رضي الله عنه قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمي « سيف الله » وفيم استحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب في الاسلام ، ولكن النبي وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة انه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم اليها العراق والشام · وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام ·

وانما هو البصر العلوي الذي يلمح هذه القدرة في معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدا مرتدا من غزوة مؤتة أو مأخوذا مع الخيل وهي تولي في أول المعركة من ميدان حنين ، أو صانعا في سرية بني جذيمة ما يبرأ منه النبي عليه السلام ·

ولهذا ينبغي أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لاقامة خالد نفسه في مقامه الصحيح ، فهي ولا ريب من المعدن الذي نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام ·

١ ــ سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد اسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التي سيرت الى البلقاء ٠

وكان سبب هذه الغزوة ان النبي عليه السلام أرسل وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام ، فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجا من القتل وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما راه ، على ديدن المنكلين في ابلاغ مثلاتهم (١) الى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل ٠

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الازدي رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني وهو في الطريق ٠

فأشفق عليه السلام من عقبى (٢) السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون ٠٠ وعلم ان قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة ، ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه ، والموهون الايمان الذي لا يصبر على الاغراء والاستثارة ، فاذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبي وأفلتوا من جرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم في عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها ! اذ لا مطمع للدولة الرومانية في مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل الى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعاهداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود ، وتسييرهم بحرا الى شواطىء الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة باناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتباعهم الأقدمين في تخوم الشام ٠

---

(١) المثلات (بفتح الميم وضم التاء) العقوبات ٠

(٢) عقبى : عاقبة ٠

فلم يجد عليه السلام مناصا من الثأر لأصحابه المقتولين ، وجرد لتأديب المعتدين جيشا صغيرا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان في ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهدا بالاسلام ، فلم يتول خالد قيادته لأنه كان على الأرجح أحدثهم عهدا بالدخول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة « فان أصيب فالرئيس جعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم » ..

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا الى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم الى الاسلام ،فان أجابوا والا فالقتال، وأوصاهم: « ألا تغدروا ولا تغلوا (١) ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا معتزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

ولا شك أن هذا الجيش انما كان بالوصف العصري « حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه الغاية ، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التي كانت يومئذ في يديها ..

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معان (٢) وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقلا قد عسكر بمآب (٣) في مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء .

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم أرض معان ، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من

---

(١) لا تغلوا : لا تخونوا في المغانم .
(٢) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز .
(٣) مآب : مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء .

ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية التي مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتهـا أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها ··

والأرجح أن هرقل انما كان في جموعه هنالك في زيـارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيـت المقدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيـام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية ·

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم ، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عمـل غير مجد ، ولم يكن منظورا ولا مقصودا عند مسير الجيش مـن المدينة ، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبي فيما يصنعون ، وغلبت حماسة الشجاعة وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم : « يا قوم ! والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة · وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنـا الله به ، فانطلقوا فانمـا هي احـدى الحسنيين : أما ظهور واما شهادة ! » ··

فاستمعوا اليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء الى مقصدهم الذي خرجوا مـن أجله وهو ابـلاغ الدعوة الى قاتلي الرسول النبوي وابراء الذمة اليهم قبل القصاص ، ان وجب قصاص ·

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم في خدمة الرومان ·

واحتمى الأمير الغساني منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددا أو أمرا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة في جوار البلدة ، فاستمات من بقي من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ، لأننا لم نسمع في أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الاجابة عليها ، ولأن قائدا منهـم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال

لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات في وجهه مخافة المصاب الأكبر في هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة ٠

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة ، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بجعفر بن أبي طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين ، فأنحوا عليه بالضرب الدراك (١) حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبث يناضل عنه الى أن مات ٠

ودعي ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له : شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة (٢) في ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس الا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت(٣)
وما تمنيت فقد أعطيت
ان تفعلي فعلهما هديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمعركة في أشدها ٠٠

فما هي الا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحي البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التي تهدي الى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها ٠ واذا باللواء يأخذه في تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بني العجلان وينادي في أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » ٠ قالوا : « أنت » قال : « لا ٠ ما أنا بفاعل » ٠ فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة في حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع في ذلك الحين ٠

---

(١) الضرب الدراك : المتلاحق المتواصل ٠
(٢) الحطمة : زحام الناس وتدافعهم ٠
(٣) صليت : من (صلى النار) أي احترق ٠

وخير ما يصنع في ذلك الحين هو الارتداد المأمون ٠٠

وهو أصعب من النصر في بعض المآزق ٠ لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه ٠ ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين ٠٠ الا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافيء الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه ٠

وأول شيء ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد الى الحيلة ٠

فصمد في الميدان حتى المساء ٠

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى الميسرة ونقل الميسرة الى الميمنة وجعل الساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح ٠ فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الأعلام ، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف في الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشي بجيشه (١) لم يتبعوه حذرا من الكمين وتوقعا للاحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد في هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط في غزواته الكبرى على كثرتها ٠ فاندقت في يده تسعة سيوف ولم تصبر معه الا صفيحة يمانية (٢) ، وكان هذا التراجع المحمي بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير ٠ فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذي أضفاه عليه النبي وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبي انهم

---

(١) يخاشي : من المخاشاة وهي المحاجزة ٠

(٢) الصفيحة : السيف العريض ٠

الكرار باذن الله وليسوا بالفرار ..

وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا في خطة ارتداد لا محيص منها . فتلك هي السنة النبوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح في تقدمه وانتصاره . ولو ان خالدا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن . ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين . لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لأناس متصلفين قتلوا رسولا واحدا أو قتلوا وفدا لا تجاوز عدته خمسة عشر . فاذا تورط هذا الجيش في الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه أحد ، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس في نفوس البادية المتحفزة أو في نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوىء الظنون ما يصعب استدراكه في سنين .

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التي حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثني عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية اذن قد نهضت بأمانتها ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم انها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها . وهي مغالاة في القوة والبأس خير من المغالاة في الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التي تضع الأمور في نصابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس في ثياب الاخفاق ..

٢ ـ بنو جذيمة

وقد أثنى النبي على خالد في مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه

لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأي المسلمين فيها ٠

ولكنه لامه وبريء من عمله حين أخطأ في مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهي السرية التي قادها الى بني جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام ٠٠

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السلام الى تطهير البوادي المحيطة بها من عبادة الأصنام ، فأرسل السرايا الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها ، ومنها سرية خالد الى بني جذيمة في نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبني سليم ٠٠ أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال ٠٠

وكان بنو جذيمة « شر حي في الجاهلية يسمون لعقة الدم ، ومن قتلاهم الفاكه بن المغيرة وأخوه عما خالد بن الوليد (١) ، ووالد عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وأخوته الثلاثة من بني سليم في موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى ٠

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول ٠ فسألهم : آمسلمون أنتم ؟ فقيل ان بعضهم أجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صبأنا ! صبأنا ! أي تركنا عبادة الأصنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فأخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا : فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بني جذيمة ! انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الاسار وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحي أبدا ٠ فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون ٠ فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف ، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب ،

---

(١) أي أنهم كانوا قتلوا في الجاهلية اثنين من أعمام خالد وجاء في (الاغاني) أن القتيلين هما ابن الفاكه المغيرة عم خالد ، والفاكه بن الوليد بن المغيرة أخو خالد ٠

وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبي عليه السلام بالقتال · ثم انتهى الخبر الى النبي فرفع يديه الى السماء وقال ثلاثا : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث بعلي بن أبي طالب الى بني جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم ·· قيل انه « كان يدي حتى ميلغة الكلب » ويسألهم : أبقي دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال « احتياطا لرسول الله » وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال : نعم · قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر . فاشتدت مراجعتهما · وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال : أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله · وأما الآخر فسالم ·· مولى بني جذيمة ··

ويعزى الى خالد أنه استند في قتالهم الى قول عبد الله بن حذافة : « ان رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام » ·

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة ، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها ، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا بقتل القوم عمدا ليدرك ثأر عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبي عبد الرحمن ورجل من بني أمية · وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بني جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه الى ورثته وأهله · فاعترضهم جذمي (١) في رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره · فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت · فغضب وقاتلهم بالرهط الذي معه فقتل عوفا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه · وهمت قريش بغزو بني جذيمة لولا أن مشى

(١) جذمي : نسبة الى جذيمة ·

بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال ٠

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبي ذريعة الى شفاء ترة قديمة ٠ فأدنى من ذلك الى القصد في فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعي اللبس ودوافع الطبع التي تدفع خالدا خاصة الى مثل هذا التصرف ، فان كانت هذه الدواعي وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهي تفسير لما حدث وفيها الكفاية ، وان لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء ٠٠

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة في مقتلة بني جذيمة ٠ فان البوادي كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة في تلك الآونة بعد تسليم مكة ٠ فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة في العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبي وجمعه ، فاذا ارتاب خالد في نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله في ارتيابه وجه لا يخفى ، واذا أضيف الى ذلك تلجج القوم في اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس في أشباه ذلك المقام ٠٠

وقد يغني الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بني جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسالمة ، وذلك اذ يقول:

دعونا الى الاسلام والحق عامرا
فما ذنبنا في عامر اذ تولت
وما ذنبنا في عامر لا أبالهم
لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين :

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم

ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب (١)

وفي قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار ــ وهو من الثقات ــ شواهد على اصرار بني جذيمة وعنادهم الى ما بعد الاسار والانذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغاني حيث نقلت ببعض التصرف : « ان خالدا بن الوليد كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بني جذيمة فقال : ان أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت • فقال : تحدث فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح • فقاتلناهم • حتى كاد وجه الشمس يغيب ، فمنحنا الله أكتافهم (٢) فتبعناهم نطلبهم ، بغلام له ذوائب على فرس ذنوب في أخريات القوم ، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه ، فقال : لا اله • فقبضت عنه الرمح ، فقال : الا اللات أحسنت أو أساءت • فهمسته همسة أذريته وقيذا ــ أي مشرفا على الموت ــ ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ، ثم كلمته فلم يكلمني واستخبرته فلم يخبرني فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بني جذيمة يسوق بهن المسلمون • فقال : أيا خالد ! قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة فأتيت على أصحابي ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة ، فقال لها ناوليني يدك ، فناولته يدها في ثوبها • فقال : أسلمي حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حييت عشرا أو تسعا وترا وثمانيا تترى » •

قال: «وتناشدا الأشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتبكي •••» الى آخر القصة في الجزء السابع من الأغاني وهي على ظهور الاختراع في بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بني جذيمة من سرية خالد•

---

(١) الغواة : السفهاء ، جمع عوي ، والغميصاء : ماء لبني ، جذيمة قرب مكة •

(٢) فمنحنا الله اكتافهم : أي أنهم تركوا الحومة طلبا للنجدة •

فاذا صح مع هذا ان خالدا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمي أمرا بقتال بني جذيمة نقلا عن النبي عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهي على أية حال رواية لا تغفل كل الاغفال في صدد البحث عن أخبار هذه السرية ٠٠٠

والجو كله بعد هذا وذاك ــ سواء في البادية أو في مكة ــ هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والاراء وأن تستطار (١) فيه دواعي الشر والنقمة ، وان يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح (٢) ٠

وعند خالد دوافع الطبع الى جانب دواعي اللبس واختلاط الآراء ، وهي الدوافع التي قد نعد منها حداثة السن في ذلك الحين ٠ ومنها انه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيرا أن يفرق بين ضربين من التسليم : هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفند اناس منه مقال اناس آخرين ٠٠

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التي تثيره اليها أعصابه ويومىء اليها تفرغه في نومه ومشاركة اخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء ، وهي ولا ريب تلك الشدة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال : « ان في سيف خالد لرهقا » وهو من أعرف الناس به وأقربهم اليه ، وهي التي توقعها جحدم أخو بني جذيمة حين صاح بقومه محذرا اياهم من القاء السلاح : ويلكم يا بني جذيمة ٠ انه خالد ! ٠ كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج الى تأويل بعيد ٠

---

(١) تستطار : تستثار ٠

(٢) الوجه الصراح : الرأي الواضح ٠

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام ·

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة فجنح بـه شعوره الى سوء الظن بهم وقلـة الطمأنينة اليهم من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام ·

فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبي على دخل (١) وسوء نية وهو الرجل الذي حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحه (٢) عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية في اطاعة النبي عليه السلام ··

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين انها خطأ وان الابقاء على خالد بعدها صواب · لأن صواب الابقاء على خدمته بعد غزوة بني جذيمة قد ظهر أيما ظهور في حروب الردة وحروب الفرس والروم ·

وذلك مثل من تربية النبي عليه السلام لأفذاذ الرجال ·

ويتجلى تمام هذا المثل باعطاء الرجال فرص المراجعـة والاصلاح في أمر يشبه الأمر الذي أخطأوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذي عرضهم للملامة وهذا الذي توخاه عليه السلام حين أرسل خالدا دون غيره الى بني المصطلق ــ وهم من بنـي جذيمة ــ ليستخبر له خبرهـم ويتبين الحـق فيما بلغـه عن ارتدادهم ، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره انهم ارتدوا عن الاسلام · فندب عليه السلام خالـدا « وأمـره أن يتثبت ولا يعجل · فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلمـا جـاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالدا فرأى ما يعجبه فرجع الى النبي صلى

---

(١) الدخل : (بفتح الخاء) الخديعة والمكر ·

(٢) له ندحة عن حربهم : الندحة : السعة ·

الله عليه وسلم فأخبره » •

وهو مثل ينبىء عن كثير ، وقد ينبىء فيما ينبىء عنه ان خالدا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببني جذيمة على اختلاف بيوتهم ، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور ، وما زال يدعو الى تلقي الاشاعة عنهم وايفاد الوفود اليهم مرتين للتمحيص والاستخبار •

٣ ـ غزوة حنين

ولم تمض آيام معدودات على مقتلة بني جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبي في حادث من أكبر حوادث الاسلام وهو غزوة حنين •

لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين : مرة في اسناد قيادة الخيل اليه على طليعة الجيش ، ومرة في سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين •

وحق خالد في تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الاسباب التي أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد ••• بل لعلها توحي الينا ان هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من انسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان •

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ انها الوقعة الفاصلة وانه لا مطمع بعدها في مكافحة النبي اذا تطاولت الأيام على قيام دينه في البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام • فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : « ان محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا • فلنغزه قبل أن يغزونا ، واستنفروا القبائل (١) فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم

---

(١) استنفروا القبائل : حرضوها على القتال •

الشباب ولدد الخصومة (١) والعناد ·· فساق أموالهم ونساءهم

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النصري ، وهو فتى جريء في نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة
الشباب ولدد الخصومة (١) والعناد ·· فساق أموالهم ونساءهم
وأبناءهم ، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفون سيوفهم (٢) ثم يشدوا شدة رجل واحد » · فاما فوز واما فناء · وصفت الخيل ثم الرجالة (٣) المقاتلة ثم الابل عليها النساء ثم صفت الغنم · ثم صفت النعم في حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها ·

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فسخر دريد برأيه وقال له : رويعي صبأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ـ أي الحرب ـ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، فرماه مالك بالخرف ولج في عناده ولمح في بني هوازن ميلا الى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم : « لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! » ·

فهي عزمة رجل مستميت لا يبالي ما يصنع بنفسه أو بقومه في سبيل قهر المسلمين ··

ونما الخبر الى النبي فخرج في ألفين من أهل مكة حديثي العهد بالاسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة · وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلاف ·

وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعا ـ وقيل مائة درع ـ بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد

---

(١) اللدد : شدة الخصومة ·

(٢) جفون السيوف : أغمادها ·

(٣) الرجال : جمع راجل وهو عكس الفارس ·

المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعاره اياها وهو يقول : كأني أنظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين ٠

وأخرج خالدا على طليعة الجيش في مائة فارس من بني سليم ٠ قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ٠ فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء (١) عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ٠ فقال رسول الله : الله أكبر ٠ قلتم ــ والذي نفسي بيده ــ كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ! ٠٠

وكان في الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين ، ومعهم في ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سفيان الذي قال حين رأى بوادر الهزيمة : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ٠٠ وفيهم كلدة بن الحنبل الذي صرخ شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم نرجع العرب الى دين آبائها ٠٠

وكان الغالب على جيش المسلمين في خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم ، فقال أبو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة ٠٠٠ ونسبت هذه الكلمة الى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء في القرآن الكريم « اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » ٠

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ٠٠٠ اني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فاذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم(٢) ونعمهم

---

(١) السدرة : شجر النبق ٠

(٢) الظعن : جمع ظعينة وهي الهودج ٠

وشائهم اجتمعوا الى حنين • فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله • ثم سأل : من يحرسنا الليلة ؟ • قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول الله • فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب (١) حتى يكون في أعلاه ، وقال له : لا تغرن من قبلك الليلة •

فلما أصبحوا سأل النبي : هل أحسستم فارسكم ؟ • يعني ذلك الحارس المستطلع • قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا • فجعل عليه السلام يصلي ويلتفت الى الشعب ، حتى اذا قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاءكم فارسكم •• فجعل ينظر الى خلال الشجر في الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف وقال : اني انطلقت حتى اذا كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا ، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا • الا مصليا أو قاضي حاجة •

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية (٢) فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني فما دريت ما صنع ، ثم نظرت الى القوم فاذا هم قد طلعوا من ثنية اخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع منهزما » •••

وحدث أبو عبد الرحمن الفهري قال : « كنا مع رسول الله في حنين فسرنا في يوم قائظ شديد الحر » •

وروى محمد بن اسحق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله اليها فأعدوا وتهيأوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم

---

(١) الشعب : بكسر الشين انفراج بين جبلين •

(٢) الثنية : الطريق في الجبل •

الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد » ·

وفي روايات شتى أن كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة في الوادي وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، « وكانوا رماة ·· لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شيء ·

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها ان الهزيمة انكشفت من الهجمة الاولى ، لأن الخيل فوجئت في الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة في جفلة حيوانية معروفة في أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وامراء الهند ان جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هي سبب الهزيمة التي اصيبت بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهي مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الاخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار ، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقي الفرس من فيلتهم في حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذا الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب في الأعين والخياشيم ·

وقد حدث مثل هذا مرة اخرى في وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوي بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت » ·

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول ان الطلقاء الحديثين في الاسلام أدبروا منهزمين عمدا بعد الهجمة الأولى · فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار ·

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من

بعضهم لا نفتهم من غلبة الأعــراب على قريش ، ولــولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل في ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركــة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما في الموعد المقدور •

فأما الحركة التي جاءت من قبل المسلمين فهي بروز النبي عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف • فقد ثبت في ذلــك الهول الجارف ثبوتا يجل عــن الوصف وأخذ زمام المعركة كلهــا في يديه ليمضي وحده في القتــال كيفما تصير الأمور •

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يــا معشر الأنصار •• ثم التفــت الى اليســار ونادى كذلــك يا معشر الأنصار ••• فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ــ كمــا وصفهــم شاهدو الموقف ــ عطفة الابل على أولادها ، واجتمع معهم حول رسول الله مئات في لمحة عين •

● ❋ ●

وتختلف الروايــات في وصف هــذه الحركة المجيــدة من بدايتها ، فيقول بعضها ان الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقي وحده ، ويقول بعضها : بل بقي معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبي لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثني عشر • وجعل رسول الله يقول :

أنا النبي لا كذب　　　　أنا ابن عبد المطلب

ثــم أمر عمــه العباس أن يصرخ في الجيش : يــا معشر الأنصار ••• يا أهل السمرة (١) • يا أصحاب سورة البقرة •

---

(١) السمرة : ضرب من الشجر ، وهي الشجرة التي تمت تحتها بيعــة الرضوان • وكأنه يناديهم : يا من بايعتم رسول الله •

يا بني الخزرج ... وكان العباس رضي الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة . وقيل انه كان يقف على سلع (١) وينادي غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال .

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون يا لبيك يا لبيك ... ويسرعون الى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد في لحظات ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال بعد الفر والادبار ، فاذا بالجيش بقضه وقضيضه يعدو الى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه . وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة في النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك ، وكانت وهي حامل تحزم وسطها ببرد لها وفي حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها .

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه في الهجمة الأولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله (٢) ، وهناك وجده النبي عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه .

أما الحركة التي جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك انهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين . فاتفقت الحركتان في وقت واحد لتحويل وجهة القتال .

* * *

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التي

---

(١) سلع : جبل .

(٢) مؤخرة الرحل : الجزء الذي يستند اليه الراكب في آخره .

أجملناها ان الهزيمة فيها بعد الهجمـة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وانها ضرورة لم يكن لخالد يد فيهـا ولا طاقة باتقائهـا ، لأن أسبابها كلهـا كانت مـن وراء تدبيره ومشيئته ، وهي كثيرة نجملها ما وسعنا الاجمال ·

فمنها ان الروح التي غلبت على جيش المسلمين في بداية المعركة كانـت روح استهانة وقلـة اكتراث وان الروح التي غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين ·

وربما رجحت كفة المشركين في الدروع والسلاح لما تقدم من حاجـة النبي عليه السـلام الى استعـارة بعض الدروع والرماح ·

و « منها » ان جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل (١) أو على ضعف يبيتون النيـة على خـذلان النبي · فخذلـوه وتبعهم الناس ·

و « منها » ان جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقفـه فاختار وأحسن الاختيار ، وهجم في الوقت الذي ارتضاه ·

و « منهـا » ان المسلمين كانـوا يواجهـون الشمس عند الصباح واليـوم قائظ لا تقـوى فيه العيـون على مواجهة شعاعها ، فحيل بينهم وبين التثبت والاحكام في مطلع الصباح الى أن استوت الشمس في كبد السماء ·

و « منها » ان استطلاع المسلمين لم يكن على عادتـه مـن البراعة والتيقن والاسراع · فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبي عليه السلام مرات · ثم جاء ولم يخبر بشيء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيل وهي لا تحسب له أي حساب ، وهذا مع مهارة المشركين في الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم ·

و « منها » ان بني سليم أصحاب الخيل التي تولاها خالد

(١) الدخل : (بفتح الخاء) الخديعة والمكر ·

كانوا على قرابة من هوازن، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بني أمكم • وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد موت النبي عليه السلام ، وما زالوا في موضع الظنة بعد ذلك على عهد الخلفاء •

* * *

فتقدير النبي عليه السلام لخالد بن الوليد انما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش في مؤتة وبني جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهري الخبير للجوهر النفيس في معدنه الخفي غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفي عليه من جمال الصوغ والضياء •

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبي عليه السلام خالدا ابن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بني مخزوم ، فانه عليه السلام لم يجامله في وصفه الذي طابقته حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه في القيادة ثلاثة من السابقين في الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن ابن عوف فغضب النبي عليه السلام وقال له معرضا : « يا خالد ذر أصحابي • لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته قيراطا في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن » •

انما هو سيد السادة ومربي الرجال والأبطال ، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء في منازلهم ، ولا يمنعه اداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار •

وقد تولى خالد للنبي أعمالا اخرى في سنوات صحبته الثلاث ، ولكن الأعمال التي اخترناها هي أكبر أعماله في حياته عليه السلام ، وهي أقرب الأعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه اريد لكل عمل صغير كما

اريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبي علية السلام نظرة في كل مهمة مقدورة ندبه اليها ...

* * *

فمن مهامه الصغيرة تسييره في ثلاثين فارسا لهدم «العزى» بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهي الصنم الذي كان أبوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم ، وكان سظدنته من بطون بني سليم الذين قاتلوا مع خالد في مقاوم شتى . وقد كان معبود القبائل التي لقيها المسلمون في يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون ان ربهم كان يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها .. وظلت مخوفة الى ما بعد الأسلام . فيقول الكلبي (١) . « ان اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع ابليس وأمره» وهي التي أرجف من أرجف من المشركين ان القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم : « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترتجى » (٢) .

فهي مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها ، وجاء في بعض الأقاويل انه : « لما انتهى اليها جرد سيفه فخرجت اليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها :

«أعزى» اذا لم تقتلي المرء خالدا   فبوئي باثم عاجل أو تنصري

فأخذ خالدا «اقشعرار في ظهره» وضربها بالسيف فشقها . ثم لقي النبي فقال له : الحمد لله الذي أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة . لقد كنت أرى أبي يأتي العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا ثم ينصرف

---

(١) الكلبي : صاحب كتاب الاصنام .

(٢) الآيات الكريمة تنتهي عند كلمة (الاخرى) وقد زعم المرجفون كذبا أن رسول الله تلا بعدها « تلك الغرانيق » وهو زعم كاذب .

الينا مسرورا ، ونظرت الى ما مات عليه أبي والى ذلك الرأي الذي كان يعاش في فضله وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع » • فقال عليه السلام : « ان هذا الأمر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها » • • •

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل أن تبلغ منه الى الناس •

* * *

ومن المهام التي ندب لها في حياة النبي مهمة يمتزج فيها الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لأنها بعثة الى اناس غلابين مجتمعي الرأي أولي عصبة وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب في معظم أنحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران •

أرسله اليهم وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله أن يقاتلهم فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا اليه •

وأقبل وفد من عظمائهم على النبي ـ بأمره عليه السلام ـ فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ • قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب • ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ وأعادها ثلاثا وهم لا يجيبون • فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء (١) : نعم يا رسول الله • نحن الذين اذا زجروا استقدموا، وكررها أربعا • فقال النبي :لو ان خالدا لم يكتب لي انكم اسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم • فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا • قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز

(١) الشوس والخيلاء : التكبر والعجرفة •

وجل الذي هدانا بك يا رسول الله ٠

قال : صدقتم ٠ ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم نكن نغلب أحدا ٠ قال : بلى ٠ كنتم تغلبون من قاتلكم ٠ فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله انا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ٠

قال : صدقتم ٠ وقفلوا الى ديارهم فأرسل اليهم عمرو بن حزم يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم الصدقات ٠

* * *

وقد شهد خالد مع النبي عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك ٠

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل (١) بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ،وجمعت من الميرة (٢) ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنهم أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون في أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم الى النزال ولا يجيبه أحد ٠ ثم صاح به عبد يا ليل عظيم ثقيف : « لا ينزل منا أحد ولكن نقيم في حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا » ٠

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة في الحصن ٠ فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد (٣) المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور ٠

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم ٠ فقال عليه السلام : « أدعها

---

(١) لاذت بها : أي بالطائف : أي لجأت اليها ٠

(٢) الميرة : الاطعمة ٠

(٣) السكك : جمع سكة وهي حديدة المحراث التي يحرث بها ٠

لله والرحم » • واستشار نوفل بن معاوية الديلي في أمرهم فأجابه : « يا رسول الله • ثعلب في جحر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك » •

وفي الطريق قسم النبي غنائم حنين قسمة لم ترض اناسا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح في حضرته : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله • فاحمر وجهه عليه السلام غضبا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم أعدل؟ووثب خالد وعمر يستأذنانه في ضرب عنقه فأبى وقال : لا •• لعله أن يكون يصلي • فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فعاد النبي يقول : اني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم •

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبي عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته • ومن ثم أمر خالدا أن يذهب الى دومة الجندل (١) ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان في وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا (٢) للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة • ومن خبرة النبي عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم انه قال لخالد : « ستجده يصيد البقر ••• فكان ما قال » •

★ ★ ★

وقد ذهب خالد الى الدومة في أربعمائة وعشرين فارسا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير •وجاء به الى المدينة فصالحه النبي على الجزية وعاهده على الأمان •

وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط في عهد النبي ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته الى بني مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه •

---

(١) دومة الجندل : حصن بين المدينة والشام ، أقرب الى الشام •

(٢) العين : الجاسوس •

قيل أنه مكث فيهم أشهرا يدعوهم فلا يجيبونه ، وانه عليه السلام بعث بعده علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد أن يعقب معه تركه ·

ولا غرابة عندنا في هذا الذي حدث ـ ان كان قد حدث على الوجه الذي ذكره الرواة ـ فان خالدا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبي سنين بعد سنين ، وانما هي سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث · وقد أم الناس بالحيرة ـ في خلافة الصديق ـ فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرا يقول : « شغلني الجهاد عن كثير من قرأءة القرآن ·

* * *

ويجوز ان النبي عليه السلام أرسله في هذه البعثة ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز انه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب ـ فارس زبيد ـ ندا له يكف من غربه ويلزمه التدبر في عاقبه نكثه وانتفاضه (١) ·

وفي تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارىء في بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضا ان البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق ، وان الرواة قد فاتهم في هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق ·

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها لو ندب الى عشر من أمثالها ـ لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه (٢) من البطولة وصدق البلاء · وليكونن بها أو بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ ،وان لم يحمله قط منبر التعليم ·

---

(١) انتفاضه : خروجه على الامر ومخالفته ·
(٢) ما هو حسبه : ما يكفيه ·

لتفصيل الكلام في حروب الردة مكان غير هذا المكان .

لأننا نتناول منها في هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه . وندع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات .

وقد رجعت حروب الردة ــ كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية ــ الى أسباب مختلفة ولم تنحصر في سبب واحد ، وربما كان من أسبابها ما خفي على المؤرخين ولا يزال خافيا علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد ان الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها ، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها .

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش ، وأقواها القبائل التي تنتمي الى ربيعة دون مضر . فانها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمري حين لقي مسيلمة زعيم بني حنيفة ومدعي النبوة في اليمامة فقال : أشهد أنك كذاب . لكن كذاب ربيعة أحب الينا من كذاب مضر .

وكان مسيلمة هذا يقول : انه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشا قوم لا يعدلون » .

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة ، فان المنافسة في الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود في كل قبيل . فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة . وروي عن عيينه ابن حصن مثلما روي عن طليحة النمري اذ قال يؤيد المتنبىء طليحة بن خويلد : « نبي من الحليفين أحب الينا من نبي من قريش » . ويعني بالحليفين بني أسد وبني غطفان .

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها في أيام خصومتها للنبي وثورتها عليه . فكان صفوان بن أمية مشركا في وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن

وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : « اسكت فض الله فاك • أتبشرني بظهور الاعراب (١) •• والله لأن يربني (٢) رجل من قريش أحب الى من أن يربني رجل من هوازن » •

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة • فما زال من دأب البادية في كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم في خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضها الى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين •

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة • فان هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ مثل هذا المطلب الجليل •

فما هو الا أن استقر الأمر لمحمد في الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن انهم قادرون على ما قدر عليه وان المسألة كلها مسألة كهانة واسجاع وقيادة واتباع ، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الأصيلة التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهي ان دعوته مطلوبة لاصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق • فنجم الدعاة (٣) في حياة النبي باليمن ، ونجد ، والبحرين ، لمجاراة الدعوة بالحجاز ، وجاءت وفاته عليه

---

(١) ظهور الاعراب : انتصارهم •
(٢) يربني : يكون لي ربا والمقصود : يملكني ويحكمني •
(٣) نجم الدعاة : ظهروا •

السلام أثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان .

ومن الأسباب التي أثارت القبائل فريضة الزكاة التي فرضها الاسلام على كل مستطيع ، فانها أثارتهم لضنهم بالمال وأنفتهم من الاتاوة وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون ، وكانت الأتاوات التي يرضخون عنها أقل من المنح التي توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات .

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعا وأعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدي : « ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغوة فوق الصريح » (١) .

ويلحق بهذا وأشباهه ان الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد في نفوس الأقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية في العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم بالمفاجأة من قبلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

وليس أقرب الى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي وشيوع الفتنة والاضطراب عن ايمانهم وشمائلهم ، مع اغراء الدعاة وفرط الحنين الى القديم وهو منهم جد قريب .

* * *

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح : وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية .. كل منها بما يوائمها وبما هي قادرة عليه .

---

(١) الرغوة فوق الصريح : مثل معناه ان الامر غامض وسوف يبدو .

وهذا يفسر لنا ان النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب اولياء الروم.وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع او مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة ، اما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين اخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم ان يسمعوا الى المتنبئين والمتنبئات ، لان عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحيه لا يرضاها أتباع كتاب . فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل الى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو انها كانت تعمل لغرض سياسي وباغراء دولة أجنبية ، ولا تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها وعند ذويها .

فسجاح هذه كانت من بني يربوع أقرب بطون بني تميم الى نفوذ فارس ، ثم تزوجت في اخوالها التغلبيين بالعراق ، ثم انحدرت من ثم الى أرض بني تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبي عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره ، فلما دعت قومها الأولين بني يربوع الى هذا الدين طلبوا اليها — على ما يظهر — ان تؤلف بطون بني تميم جميعا الى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين ، فلم يتفق بنو تميم على رأي . وتركتهم الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الاسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد هو : الزحف على الحجاز ولكنها رجعت الى قومها وهي تقول : «انها وجدته على الحق فتزوجته » وانه سيؤدي لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها الى بلادها ..

فلماذا خالفها بنو تميم ؟ ولماذا خالفها مسيلمة ؟ ولماذا انحدرت ثم عادت ان كان همها التبشير بدين جديد ؟ ولماذا

هابها مسيلمة وأعطاها الجزية هو يأنف أن يعطيها (١) خليفة المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل ان عدته أربعون ألفا وقيل بل ستون ولم يقل عن عشرين ألفا في تقدير أحد من المؤرخين ؟ ..

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد ، وهو انها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الاخفاق أو النجاح .

ويعزز ذلك انها لقيت في رحلتها عملاء فارس جميعا من أبناء البوادي العراقية والنجدية ، وانها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم ..

قال ابن الكلبي : « كانت عين كسرى تبذرق ــ أي تحرس ــ من المدائن حتى تدفع الى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بني ربيعة حتى تدفع الى هوذة ابن علي الحنفي باليمامة ، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ، وتجعل لهم جعالة (٢) ، فتسير بها الى أن تبلغ اليمن » .

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التي لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها .

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الاكاسرة ويخلف المناذرة في وقت واحد .

فقد هدمت وقعة ذي قار ــ التي مر ذكرها بأول هذا الكتاب ــ هيبة الأكاسرة في الجزيرة العربية .

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة ــ ملوك الحيرة ــ الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم في اخضاع البادية القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل . فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة في هذه

---

(١) أن يعطيها : المقصود الجزية والضمير هنا يعود عليها أي على الجزية.

(٢) الجعالة : ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة .

المهمة القديمة .

وكـان اختيارها مـن بني تغلـب أدنى شيء الى المعقول والمنظور ، لأنهم أعداء بني بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم في وقعة ذي قار .

ثم كان تردد بني تميم وحنيفـة في معاملتهـا أدنى شيء كذلك الى المعقول والمنظور ، لأنهم أصدقاء المناذرة من زمـن قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب فارس . وغاية ما في وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة ، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه . .

بل نحن نخطر هذا في أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون في حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون في حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الأكاسرة على أثـر حروب الردة ، فهي شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية . وكانت رحلة سجاح الى الجزيرة العربية هي أولى الطلائع في حـرب الأكاسرة والاسلام . .

* * *

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : ان المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتـين في هذه المعركة .

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه .

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلوا من جانب المصلحة والفائدة . لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهمـا وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهما قوة تكافىء كل قوة في البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب . .

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقا أن يتشعب ويستفحـل ، وكـان الأنصار فيمـا بينهم

مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صغارا في كل من الشيعتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فان بني هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين ٠

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعا انهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحي البداهة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق ، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار ٠٠

وغني عن القول ان خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية ٠ بداعي العقيدة الاسلامية ، وداعي العصبية القرشية ، وداعي النشأة الحضرية ، وداعي القيادة العسكرية ، التي قدمته الى طليعة المجاهدين في هذا الميدان ٠

فشهد حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها ، وقسمت له الحصة الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة في صدر تاريخه ، وهي وقعة اليمامة التي انتصر فيها بعد هزيمة قائدين ٠

وتنقسم أعمال خالد في حروب الردة الى قسمين : أحدهما الذي اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة في المدينة وما جاورها ، والآخر الذي استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عملية في هذه الحروب ٠

* * *

توفي النبي عليه السلام وجيش اسامة بن زيد في الجوف من أرباض (١) المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع

(١) الجوف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، وأرباض المدينة : حولها ٠

برؤوسها • فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجىء مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن في عقر داره خلال تلك الغاشية ، فأبى أشد الاباء أن يخلف وصية النبي أوصى بها في مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : « والله لا احل عقدة عقدها رسول الله ، ولو ان الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو ان الكلاب جرت بأرجل أمهات المومنين لاجهزن جيش اسامة » ونادى في المسلمين : ليتم بعث اسامة ! ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف •

وسار الجيش الى وجهته كما أراد •

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار • ودرى اقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهي عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة في الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو اقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة •• أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة ، وتركوا شطرا من جموعهم في الربذة حيث تلتقي طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشطر الاخر الى ذي حسا وذي القصة وهي اقرب محلة اليها • ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس في بيوتهم ويتوسلون بهم الى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه • فأبى أباءه الذي لا ينثني وقال لو منعوني عناقا لجاهدتهم عليه (١) •

فقفلت الوفود الى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقفولها ، وأخذ في التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الايمان • فلم يدع شيئا قط يستعد للخطر المنتظر الا أعده في أوانه ، وعلى الوجه الأمثل في تلك الأحوال ••

استطاع جمعه من المجاهدين ، وأرسل العيون على الطرقات

---

(١) العناق : الانثى من أولاد الغنم أو الماعز •

فأقام كبار الصحابة على الأبواب ، وجمع في المسجد من كل سبيل ، فما هو الا أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بذي القصة فذعروا لهذه البغتة التي لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم في ذي حسا فصمدوا هناك للمقاومة ، وقيل أنهم تحيلوا على ابل المسلمين التي لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء (١) المنفوخة في وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت • فأطمعهم ذلك في الهجوم على المدينة ، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة ••

الا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا • بل خرج بمن معه في هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة • لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهي قليلة الحامية مفتوحة الطريق •

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الاسلام •• ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الايمان وحزم التدبير وحزم الوفاق ، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الرأي وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك ، لقلة الكلأ والماء الذي يكفيهم مجتمعين - فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهي منحلة الوثاق •

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير ، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للايمان ••

---

(١) الانحاء : زق السمن •

ففي هذه الفترة التي شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشي بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون ••

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية في جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال •

ومضى رسوله « عدي بن حاتم الطائي » الى قومه بني طيىء وهم يترددون : فريق يعصي الخليفة ويلحق بالمتنبي الأسدي طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار • فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على ارهابهم مصير عبس وذبيان • وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الأمداد التي تتدفق على المدينة أو يثوبوا الى الاسلام وايتاء الزكاة • فأصغوا إليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا في زمرة جيش المسلمين •

* * *

الى هنا انتهت المرحلة الأولى التي اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة • وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين ••

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهي المرحلة التي توزع فيها الأعمال بين القادة في شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف ، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبئين في مواطنهم ، ليجعل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه •

ففي أول هذه المرحلة نرى خالدا « بذي القصة » حيث

عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار • ووجهته الى « بزاخة » من أرض بني أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبيء القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد •

وربما كان الصحيح أن خالدا انما استقل في أول هذه المرحلة بعمل القائدالعسكري في تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها • اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبهه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه الى بداية طريقه •

قال الخليفة وهو يودع الجيش : « أيها الناس : سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم • فاني خارج فيمن معي الى ناحية خيبر حتى ألاقيكم » •

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ••• عليك بتقوى الله وايثاره على سواه ، والجهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فان معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم • فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر (١) بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد (٢) لك المنازل، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات (٣) فان في العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله في سريرتهم ، واذا أتيت دارا فاقحم • فان سمعت أذانا أو رأيت مصليا امسك حتى تسألهم

---

(١) استظهر بالزاد : استعن به •
(٢) ترتد : الفعل مجزوم في جواب الامر والاصل (ترتاد) •
(٣) البيات : المفاجأة في الليل •

عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذانا ولم تر مصليا فشن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس ··· واذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبره (١) فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فانه بلغني انهم رجعوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فأمض الى أهل اليمامة · سر على بركة الله » ·

* * *

ولم يكن الخليفة على نية المسير الى خيبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش الى بزاخة نصا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيىء حين يقصد اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بارسال من عنده من طيىء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن ان الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال ··

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى في طريق بزاخة ثم عرج الى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيىء ، وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل ·

* * *

وقبل أن يستوي خالد في طريقه الى بزاخة جاءه اناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بني أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية · ولم يكن عدي بن حاتم على رأي قومه فقال لخالد : لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى

---

(١) الدبرة : الهزيمة أو النصر ·

فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه • أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم ؟•• فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون في قتالهم ، وقال لعدي : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين • امضوا الى أي القبيلتين أحببتم »•

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو في القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء ••

أما طليحة فالظاهر انه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاخة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء في مكان أمين لئلا يقعن في السبي اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بني أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم اسلوب خالد في قتاله ••• اذ كان وكده (١) قبل كل وكد أن ينحي بالضربة المصمية (٢) على رئيس القوم فيفت في أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار • ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروفا عنه انه أقسم لا يدعوه أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيطة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان في هذه الخصلة نقيض نده الذي يصاوله وينازله بالسلاح والأخلاق ، فكان خالد أقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيطة •

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة •• فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير

---

(١) وكده : المراد القصد •

(٢) المصمية : التي تدع المضروب يقع قتيلا بين يدي ضاربه •

مئات من الأميال في الأودية والجبال ٠

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التي تأتي في ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف في ساعات معدودات ٠

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت. وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة وانقضت هنيهة خيل الى المسلمين انهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بني طيىء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيىء ويستدرج المرتدين اليها ٠ فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا أعتصم بغير الله !

ثم عول على الكرة في كبة (١) الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه ٠ فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة في قلوب صحبه ، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبي يوم حنين : يا أنصار الله ٠٠ فلبوه مندفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحر القتل في الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو في « دثار الكهانة » يوهمهم انه يتلقى الوحي أو ينتظر المدد من السماء ٠

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة في أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟٠٠ قال : لا ٠٠ ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحا به وقد نسي في غضبه انه يخاطب على زعمه نبيا من الأنبياء : لا أبا لك أجاءك صاحبك ؟ قال لا ٠٠ فصاح به : حتى متى ؟ قد والله بلغ منا ٠ فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له : نعم ٠٠ جاءني وأوحى الي « ان لك رحى كرحاه ، وحديثا لا تنساه » ٠٠ فسخر منه عيينة وقال :

---

(١) الكبة : الجمع والزحمة ٠

« نعم ·· هو حديث لا ننساه ·· » ونادى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بني فزازة ·· انه لكذاب · وجعل طليحة يسألهم من حيرته ما يهزمكم ؟ ·· فأجابه أحدهم : أنا احدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه » ·

وأدرك طليحة حذره (١) · وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة وراءه، ونجا بها وهو ينادي أتباعه :

« من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » · وما زال في فراره حتى لحق بالشام ··

* * *

وتعقب خالد فلول المرتدين ومن ما لأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم في « ظفر » حيث أحاطوا بسلمى أم زمل وهي كأمها من قبلها مضرب المثل في العزة والمنعة · كان يقال عن امها « أعز من أم قرفة » (٣) لأنها تعلق في بيتها خمسين سيفا كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هي في عهد النبي عليه السلام فاعتقتها السيدة عائشة رضي الله عنها · فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التي انتهى بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التي تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها بواعث اخرى للغضب والثورة · فدار بين خالد وبين جيشها أحر قتال، ووقفت هي على جمل مشهور تضرم النخوة في قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار ، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون · فيجعل خالد مائة من الابل لمن يصيب الجمل ·· وأرسل نخبة من فرسانه عليه

---

(١) الحذر : (بكسر الحاء) : الاستعداد والتأهب ·

(٢) مالأهم : حالفهم ووقف في صفهم ·

(٣) أم قرفة ، : امرأة فزارية ·

فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين •

وقد تفرقت سرايا في أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام •

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت الأخيرة وهي القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش • لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا في التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التي يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين في غير ساحة الحرب وبغير نذير من قتال • فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا يني في عقاب المعتدين « ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره » •

ولم يكن خالد في مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى توكيد وتشديد فلم يقبل المرتدين الا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين » • ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم • وقاد رؤساءهم في جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء •

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل في شرعة الحرب والسلم ، وانه لازم كل اللزوم في أحوال كتلك الأحوال •

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثلات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة اناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد «الدولة» في كيانها وهي أحوج ما تكون الى الأمان والضمان ••

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الامعان في تأديبه على النحو الذي نحاه • فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب

بعذاب الله ؟ أنزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان في حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب •

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد — فهذه البعثة بين بعثاته جميعا هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، اللهم الا استقلال القائد الكفؤ بحسن القيام على ما وكل اليه ••

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال الى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن نتحرى نصيبها من اطاعة الأمر ونصيبها من الاقدام على العمل غير مأموز به ولا محمود عليه •

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاخة وانما أنضى خالد بهذه الخطة الى الخليفة فأقرها ووافقه عليها •

ذاك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح ان الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها الى يائها ، وان نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة ، ويميل بنا الى هذا الترجيح ان نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان ، وان الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام ، اذ كان مأثورا عنه انه كان اذا قصد وجهة ورى بغيرها ، وانه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه ، وقد جرى الخليفة على ذلك في دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد •

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد الى بني تميم — بعد معركة البزاخة — قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم • قيل ان الأنصار أنكروا عليه المسير الى بني تميم وقالوا له : ما هذا بعهد الخليفة الينا ، انما عهده ان نحن فرغنا من

البزاخة واستبرأنا (١) بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا »
فقال لهم خالد : « ان يكن عهد اليكم هذا فقد عهد الي أن أمضي • وأنا الأمير والي تنتهي الاخبار ، ولو انه لم ياتني كتاب ولا أمر ثم رايت فرصة ان أعلمته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها » •

بل قيل أكثر من ذلك انه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالاغارة عليها • وهي اهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم •

فزعم قوم انه قال لصحبه بالبطاح : والله لا أنتهي حتى اناطح مسيلمة • فأبى الأنصار وقالوا : هذا رأي لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة • فأصر على رأيه وقال : لا والله • حتى اناطح مسيلمة • فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا،ولئن هزموا لقد خذلناهم• فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة •

والذي لا نزاع فيه ان الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد الى بني تميم ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذي القصة : « اذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له » •

أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبي جهل ثم رأى حاجته الى المدد فوجه في أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة • وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد ان الخليفة وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل ، ولا كان معقولا أن يكتفي بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده في حاجة الى التعزيز والامداد ••

وقد تقدم ان الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبل

---

(١) استبرأنا بلاد القوم : طهرناها من المرتدين •

خروجه الى البزاخة ••• وليس ثمة من داع الى الشك في نسبة ذلك المقال اليه ، ولا الى الشك بعد هذا جميعه في تولية خالد قيادة الجيش الذي سار الى اليمامة ••

ومن المتواتر جدا ان خالدا لقي الخليفة بعد مسيره الى بني تميم وقبل مسيره الى بني حنيفة • لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويره وزواجه من امرأته ليلى • فهو قد توجه الى اليمامة مأذونا مأمورا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بني تميم • وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل ان خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح ••

* * *

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية في ذي القصة ان الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة •• وأراد في الوقت نفسه أن يشغل بني حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معا ، ويكون خالد قد فرغ في خلال ذلك من أمر بني أسد فيدرك سابقيه معززا لهم ان تعذر عليهم أن يقهروا بني حنيفة قبل قدومه ، وهي خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة ، ولا يمنع هذا ان الخليفة أمر خالدا أن يرجع اليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيء في غيابه •

وفحوى الأقوال الكثيرة التي تتفق بالبداهة على هذا النسق ان خالدا قد تولى التنفيذ في ترتيب أعماله وتولاه أيضا في أوائل خططه ، ولكنه قد وكل الى نفسه في الأمور التي يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب • ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء • فقام بما وكل اليه جميعا على أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، الا في موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : أحدهما في البطاح والآخر في اليمامة • فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة ، ولم

يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الاسلام .

وظاهر من مقال الخليفة في ذي القصة انه لم يكن على يقين من عداء بني تميم ، أو من ضرورة القتال في أرضهم ، وانما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين اليهم . وبخاصة بعد وفود زعماء منهم باعلان الطاعة وايتاء الزكاة .

وليس أدل من هذا على ان الصديق رضي الله عنه قد كان يعمل عمله في حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وان من دواعي انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء .

فتقديره لموقف بني أسد منذ البداية كان أصح تقدير .

وكذلك كان تقديره لموقف بني حنيفة في اليمامة ..

ومثل هذين في صحة الالمام بالأحوال المختلفة شكه في ضرورة القتال بالبطاح ، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط ، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الاخرين من زعماء بيوت بني تميم .

فالواقع في أمر بني تميم كما نعلمه اليوم انهم لم ينطووا على خطر جسام وان اختلفت في نياتهم الظنون .

وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحي الى الخليفة رأيه الذي ارتآه .

كانوا في أجهل أيام الجاهلية في طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى .

وكانوا يجترئون على المغامرات التي تفرق منها القبائل الأخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التي تسير في رعاية الدولة الفارسية وحراسة اناس من بني حنيفة . وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان . فلما استشار كسرى بعض زعماء بني حنيفة في عقوبتهم قال له : « ان أرضهم لا تطيقها أساورتك (١) وهم

---

(١) الاساورة : جمع أسوار وهو الفارس والقائد في جيش الفرس .

يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ، فاذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معي جندا من أساورتك ، فاقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها • فتصيبهم عند ذلك خيلك » •

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة في سنة مجدبة • واستعان عليهم بمن يستدرجهم الى مكان ينالون فيه ••

ولكن بني تميم على هذا كانوا مثلا من الامثلة النادرة على عجائب الحظوظ في هذه الدنيا ، فقلما ظهر للمعتبرين ان الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك في شأن بني تميم •

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الاجماع بينهم على رئيس واحد • فتشعبوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات ، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب الطارىء عليهم من الأعداء والأصدقاء ••

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية ، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربا عليه • فأجاب رؤساؤهم الدعوة ، وأقرهم النبي على رآستهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، ووكيع بن مالك على بني حنظلة ، ومالك بن نويرة على بني يربوع وهم بيت من بيوت بني حنظلة الكبار •

وكل أولئك رجال من ذوي الرأي الراجح والقول النافذ والمناقب « الشخصية » •• ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا اخرى لم تتفق لواحد منهم ، وهي اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة ، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزي والشارة ، وهي في جملتها تلك الصفات التي ترشح صاحبها لمآسي البطولة في قصص الحياة من واقع أو خيال •

كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافا لا يبقي على مال ، وكان فارسا شاعرا محدثا ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف ، ومن ذاك انه كان يقصد الحي من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها ، فلا يحدث أهل الحي هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه وحسن سمته فيردوا اليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم أصفياء ..

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة . فصرفها عنه بلباقته الى ملاقاة البطون الأخرى من بني تميم . ولعله زين لها أن تجمعهم اليها عصبة واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها ... وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هي دعتهم الى الالتفاف بها فلم يجيبوها .

ولم تزل الأنباء ـ قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها ـ يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم . الا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بني حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بني تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بني حنيفة .

فلما أخذ الخليفة في عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر ، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه ، وتحير مالك بن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة .

وأغلب الظن ان بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه ، ثم ليم في ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالأمر المخوف قائم
منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعني ان محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد

مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه ٠

وهو على الجملة موقف رجل مسرف « لا يبالي ما يجيء من الغد » كما قال : وليس بموقف عناد وتحفز لقتال ٠

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال ٠ فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر هذا البطاح ٠ فجاءته بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع ٠ فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك انه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب والجمال ، ولا سيما جمال العينين والساقين ٠ يقال انه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها ٠

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب واصعبه أن تهتدي منه الى مخرج متفق عليه ٠

فمن قائل ان السرايا وجدت بني يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان ٠

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد « ان دافئوا أسراكم » ففهم الحراس انه يريد القتل لأنهم من بني كنانة والمدفأة بلهجتهم كناية عنه ٠

ومن قائل ان مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد ٠ ثم تضطرب الروايات في نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح ٠ فقيل ان مالكا صرح بأنه لا يعطي الزكاة وانما يقيم الصلاة ٠ فقال خالد : أما علمت ان الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون الأخرى؟فقال مالك : قد كان صاحبك(١) يقول ذلك ٠ فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبي وقال له : أو ما تراه لك صاحبا ٠٠٠ ثم حمي الجدل بينهما حتى أمر بقتله ٠٠٠ ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذي لا يتماسك لوهيه ٠ فزعموا ان خالدا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه ٠ وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر ! وهي خرافة تروى لتدلنا على شيء واحد : وهو وجود المحنقين

---

(١) يقصد بقوله (صاحبك) : النبي صلى الله عليه وسلم ٠

الراغبين في التشهير بخالد وتبشيع أعماله وايغار الصدور عليه ٠

وقيل ان مالكا لمح في عيني خالد الاعجاب بامرأته فصاح به : هذه التي قتلتني ٠ فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام ٠

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون ان هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفي ذلك يقول أبو نمير السعدي :

قضى خالد بغيا عليه بعرسه

وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل ان خالدا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : وهذه بعد تلك ؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصاري وعبد الله بن عمر في أمره فكره خالد كلامهما ٠ وعاد مالك يقول له : يا خالد : ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ٠ فقال خالد : لا أقالني الله ان أقلتك ٠ وتقدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه ٠

ويزيدون على ذلك ان خالدا دعا أبا قتادة الأنصاري وعبد الله بن عمر الى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها ٠ فأبيا وأشارا عليه أن يكتب الى أبي بكر ، فلم يستمع اليهما ٠

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدا لواء واحد ، وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقي الخليفة ولقي عمر بن الخطاب ، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف ٠ وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيده (١) قائلا : ان سيفه فيه رهق (٢) ٠ فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ، تأول فأخطأ (٣) ٠ ارفع لسانك عن خالد ٠ فاني لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين ٠٠

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليه ٠ فلما قدم الى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة في طلب القود منه ٠

---

(١) يقيده : يقتله قصاصا ٠

(٢) رهق : طغيان وسفه ٠

(٣) تأول فأخطأ : حاول أن يتفهم الامر ويفسره فأخطأ ٠

رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهما . فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به : « قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك » ..

فتركه خالد ولقي الخليفة فاعتذر اليه . فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفا عنه واستبقى خدمته. . فعاد خالد الى المسجد وفيه عمر .. فبادره حين رآه مناجزا : هلم الي يا ابن أم شملة ... فعرف عمر ان الخليفة قد عفا عنه . فلم يكلمه ودخل بيته .

وحسبنا من هذه الأقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه . والثابت الذي لا نزاع فيه ان وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا في أمر مالك بن نويرة ، وان مالكا كان أحق بارساله الى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة ، وان خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة .

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: ان وقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال ، لأنها لم تضف الى فخاره العسكري كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه ان له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون .

★★★

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال .

ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ . اذ معنى الخشية عليه من أخطائه انه فقير في الحسنات والعظائم ، وانه من الفقر في هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته . ولم يكن خالد بن الوليد كذلك. بل كانت له في ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة ، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل

منهم في نصيبه كفايته من الفضل والرجحان ·

خرج من البطاح الى اليمامة ·

خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الأكبر في حروب الردة وفي حروب الاسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين ·

ويرجع هذا الخطر الى قوة بني حنيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن تمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات ·

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها : ان مسيلمة قد استفحل أمره وعظم ·· فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها : « عليكم باليمامة · دفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة » ·

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا أخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زري الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن خلابته ان النبي عليه السلام أرسل اليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال · فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أن يوحى اليه وانه سمع النبي عليه السلام يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة ·· وقد استغوى سجاح — وهي تدعي النبوة — حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار · وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن · فقد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه ، وصاحت احداهن ساعة أن قتله وحش بن حرب مولى جبير بن مطعم : « وا أمير الوضاءة · قتله العبد الأسود » ···

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء · لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه · فيخيل

اليهم انه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التي كان يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم « النيرنجيات » (١) حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها • ولم يكن في طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب • فقد قيل في وصفه وهو يتكهن : « انه اذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه » ••• والأغلب الأرجح ان به صرعا كأولئك الذين يشبهونه في الخلائق والدعاوى ، ومنهم الذين يعالجون « الاستهواء » من المستهوين أو الوسطاء •

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه • فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألفا أو ستين • وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين •

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة ومقاومة الاسلام • فكان يقاتل تمامة بن اثال ، ويناوش بني تميم لما بينهم من الذحول (٢) والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم ان أشياعه من بيوت بني تميم قد يخذلونه ، وان الذين دانوا بالاسلام بين قومه عيون عليه ، وان الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره •• فتحيل على مهادنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم في عجلة الى موقع يقال له عقرباء في طرف بلاده على مقربة من بلاد بني تميم •

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذي سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه ان الحرب في العراء غير الحرب في بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار ، فتوجه الى اليمامة في

---

(١) النيرنجيات : عمل يبدو كالسحر وليس سحرا •
(٢) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر •

أهبة كافيــة بالقياس الى أهبــة المسلمين لأعدائهــم في صدر الاسلام ·

ولا يعلــم على التحقيق عدد الجيش الــذي كان معــه في عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها · لأن جيشه بالبزاخة نحو خمســة آلاف ، يضاف اليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذي سبقــه ولبث في انتظاره ، ولا يقل عن ألفين ، ويضاف اليهم الردء الذي أرسله الصديــق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمي ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بني تميم وبني حنيفــة ، فهم في جملتهم يجاورون الثمانية الالاف ولا ينقضون عنهــا ، ان نقصوا ، الا بقليل ··

لكن مكان القوة من هــذا الجيش الصغير انما هــو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه · فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز في عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان في عدة وافية من أفذاذ الرجــال الذين يقومــون بالألوف ·· فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران ·

وكانا كفؤين متناظرين في صدق النية واتقاء العــار من الهزيمة · هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين · وقد قال ابن مسيلمــة لقومه وهم يتقدمــون الى المسلمين : « هذا يوم الغيرة · اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيــات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم ·

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل في النجاح ·

ولم يزل خالد يتقدم الى وجهته على تعبئة كاملة كعادته في معظم غزواته ·· وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته في كل مرحلة من مراحل الطريق · ولعله استعظم القــوة التي حشدها مسيلمة في عقر داره فجنح الى الأخذ بالأحوط وكتب الى الخليفة في طلب المــدد عسى أن يحتــاج اليه بعد الجولة

---

(٢) الردء : العون أو المدد ·

الأولى من جولات القتال ، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلي • ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل اليه ، فلقيه منصرفا من اليمامة •

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه في الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين •• عليهم مجاعة ابن مرارة من زعماء بني حنيفة وأصحاب الرأي والمنزلة فيهم ، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم انه ذهب « لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر » • فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبي ومنكم نبي • فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته في قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة •

ونزل خالد على كثيب في مواجهة مسيلمة • ثم التحم الفريقان « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » واندفعت في هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال •• فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيرا وهو يقول : نعمت الحرة هذه • وعليكم بالرجال •

شوهد في كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم في الصدر الأول (١) أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهي مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف العهود ، لأن « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد • وانما الثبات للعقيدة التي يلوذ بها الانسان بعد المراجعة ، وللضمير الذي يثوب اليه المرء بعد الامتحان • وليس من شأن العقيدة أن تكون ــ كالدفعة الحيوانية ــ وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة • وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها • فهي لهذا تنفع صاحبها في المحنة وبعد تبين الشدة • وبخاصة حين يحتاج

---

(١) الصدر الاول : العصر الاول من عصور الاسلام •

اليها بعد الجولة الأولى ٠

وهذا الذي حدث في عقرباء كما حدث في وقائع شتى ٠

فبعد الجولة الأولى التي فازت بها « الدفعــة الحيوانية » برزت العقيدة الى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهي معجزات لا يتخيل العقل ان نفسا انسانية تقدم عليها بغير اعتقاد ٠

انكشف الأعراب أولا في أول صدمة ، وتزلزلت أقــدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء ٠

فبادر خالد الى تنظيم جيشــه على وضع جديــد ٠ فميز المهاجريــن وميز الأنصار وميز الأعراب كــل بني أب على راية ٠ وصاح بهم : أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى (١) ٠

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت لــه الحياة ووهب النصر (٢)حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويغرض عليه النصف والرجوع الى الحــق ومسيلمة يروغ منه ٠ ثم نادى بشعار المسلمين : يا محمداه ٠٠ ودعا الى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له في مجال ، ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنــه ترك كل شيء في تلك الساعة الا أن يتقدم أمامــه ٠ ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليــوم أركان حربه : « لا أوتين من خلفي » ومضى الى تقدم بغير رجوع ، الا رجــوع ظافر مختار ٠

وظهرت في مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة ٠ فحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض الى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد مــا تحنط وتكفن ٠ فلــم يزل ثابتا حتى قتل في مكانه ٠

وصاح زيد بن الخطاب : أيها الناس عضوا على أضراسكم

---

(١) من أين تؤتى : من أي جهة يتمكن العدو منا اذا قدر له ذلك ٠

(٢) اشارة الى قول أبي بكر رضي الله عنه (أحرص على الموت توهب لك الحياة) ٠

واضربوا في عدوكم وامضوا قدما • ثم أقسم : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فاكلمه بحجتي ، فكانت آخر ما فاه به في ذلك اليوم •

وحمى البراء بن معرور وأخذته العرواء التي كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال • فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة •

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم : يا أصحاب سورة البقرة ••• يا أنصار الله ••• كما ناداهم النبي عليه السلام في يوم حنين • فاستحى كل منادى منظور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه ولم ير منهم الا قتيل في موضعه أو زاحف الى الأمام •

وما هي الا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين ، وهرول مسيلمة نفسه الى حديقة مسورة من ورائه • وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها • ولاحت من البراء نظرة الى جانب الباب فاذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم • فصاح باخوانه : يا معشر المسلمين : القوني عليهم من فوق سورها • فاحتملوه فوق الحجف ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد تواثب أفراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه •

وقتل في هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا في الحيرة وهم في هزيمة لا يشار فيها برأي ولا يصغى فيها الى مشير • فشغلوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها • فحق لتلك الحديقة في ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لأنها اشتملت في يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا في ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم في تقدير المقدرين عشرة آلاف من بني حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم في تقدير

المقدرين يرتفعون الى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا حنفيين وألفين مسلمين وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى في الآفاق من أبناء تلك المعركة التي ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء • ومن جراء مقتلهم في هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن في المصحف بعد أن فني الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون •

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقي فيها الا النساء والصبيان والشيوخ والكبار • فاقترح عليه مجاعة أن يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلهم • ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الناس • فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبي والغنائم ، ثم نزل من النصف الى الربع حين أوهمه مجاعة ان القوم قد رفضوا ما قبل منه •

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بني حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبي أو شيخ فان أو رجل هزيل لا يرجى لقتال •

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التي اجترأ عليه بها علانية وهو في قبضة يديه •

لكننا في الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب • لأن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره في النفوس النبيلة ويبعث له فيها الاعجاب الذي يكفكف من شره كل غضب سريع • فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء •

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر اليه نظرة شزراء وصرخ به : ويحك •• خدعتني • فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر ، وانما قال : هم قومي •

وما نحسب الا أن الاعجاب بمجاعة قد حبب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينه وبينه . زعيم شجاع جميل الرأي حسن التدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم . وهو خير صهر في تلك القبيلة التي يفخر « سيف الله » بدخولها على يديه في الاسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب . وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التي يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء فاختار له واديا من اوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة اخرى ، وخطب الى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها ، وهي خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل . لأن مجاعة قد علم من « ليلى » منذ كان سجينا في خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد في ساحة القتال . فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالدا في جريرته . فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه ، وقال له : « مهلا .. انك قاطع وظهرك معي عند صاحبك » ... ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى أجابه ورأى ان عاقبة القبول أسلم من عاقبة الاباء .

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بني حنيفة ، فعادت الرسل الى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب أن الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع في نفسه من حسبان فكتب اليه أعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده أو وال من ولاته ، وسماه « ابن أم خالد ... » وقال له في خطابه : انك لفارغ . ونعى (١) عليه انه « ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد » .

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر في انفة وعزة : « أما بعد : فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت

---

(١) نعي عليه : عابه وشهر به .

بي الدار ، وما تزوجت الا الى امرىء لو عمدت اليه من المدينة خاطبا لم أبل • دع اني استثرت خطبتي اليه من تحت قدمي ، فان كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا آعتبتك (١) ، وأما حسن عزائي على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيا أو يرد ميتا لابقى حزني الحي ورد الميت ، ولقد اقتحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت • وأما خدعة مجاعة اياي عن رأيي فاني لم أخطىء رأي يومي ولم يكن لي علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيرا ، وأورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين » •

وقال في رسالة اخرى : « اني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح » •

وقد ظن خالد ان الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا اصغاؤه « للأعيسر » كما كان يسمى عمر بن الخطاب • ويخيل الينا ان سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا ان زواجه ببنت مجاعة سبقه ذلك الزواج الذي خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة •

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد في حروب الردة كأحسن ما ينقضي هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم في هذه الحروب ، لانه قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها • فقمع فتنة بني أسد وحلفائهم ، وخطرها انها كانت أقرب الفتن الى المدينة ومكة • وقمع فتنة بني حنيفة ، وخطرها انها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة • وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التي نظرا معا في تفصيلاتها أو من الخطط التي عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها في أماكنها وأوقاتها • ولم يخالف رغبة الخليفة الا في موضعين لهما ، كما أسلفنا ، علاقة بمسألة زواج •

---

(١) أعتبتك : أرضيتك ، وفعلت ما يسرك بعد أن فعلت ما ساءك •

أما الأولى ــ وهي زواج ليلى امرأة مالك ــ فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأي فيه ــ كما أسلفنا ــ انه عمل يحوج خالدا الى الاعتذار والتفسير ، وانه صفحة كان خيرا له لو طويت من تاريخه ، فما فيها مزيد افتخار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار ٠

وأما الأخرى فلا يسع أحدا أن يسهو فيها من عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم في ميادين القتال ٠

ولكن لا يسع أحدا كذلك أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبني حنيفة متصلا برغبته في الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين في صلح اليمامة ٠٠ ذلك بعيد ، جد بعيد ٠٠

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان في وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه اياه ، ومرضاة للخليفة الذي أمره باستئصال من يحمل السلاح في القبيلة ، فهو يقتله ولا معتبة عليه ٠

ولم يصالح خالد بني حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه ٠ بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع ــ هو مسيلمة بن عمير ــ أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف في قومه : « يا بني حنيفة ٠ قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء» ٠

فلما عارضه مجاعة وذهب برأي الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير في لجاج الخصومة وانسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التي لا تؤمن عقابيلها (١) في معسكره ومعسكر بني حنيفة ، فتنبه خالد اليه وسأل : من هذا المقبل ؟ ٠٠ فعرفوه به فقال : اخرجوه عني ٠ فلما أخرجوه وجدوه يخفي السيف في ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه في الحصن وأخذوا عليه عهدا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهي بيعة قومه على الاسلام ٠٠٠ ولكنه

(١) العقابيل : جمع عقبول وهو الشديد من الامور ٠

غدر بعهده وأفلت بالليل الى عسكر خالـد مصرا على قتله ، فلما أدركوه دون بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم ٠

ومع هذا بقيت بلد « القرية » ووادي العرض في اليمامة لم يشملها الصلح الذي شمل العسكر في عقرباء ٠ فلـم تكن مطاولة القوم خيرا من المصالحة في حالة كتلك الحال ، ولم يكن في طاقة المسلمين على أن ينهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن ارجاء التسليم مأمون المغبة اذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند في الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع الى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبي النساء « غير حظيات » وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول ٠

فدواعي خالد الى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ، وان الداعي الذي لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة ٠ وأيسر شيء لديه أن يسببها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى الى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل ان يطلع على الموقف في اليمامة من جملة نواحيه ٠

وبعد فليحسب زواج خالد كله في أي سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون ٠

ففي سجل المفاخر الاسلامية شيء يحسب له بعـد حـرب اليمامة لن يطول فيه خلاف ٠٠ فتلك أول حرب ظهـر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه السلام انه سيف من سيوف الله ٠ كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم « الأعاجم » التي تحيط بالبلاد العربية ٠

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الاسلام في أرضه ، وهو أوفى نصيب ٠ وسنرى نصيبه من مراس (١) الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين ، ولكن نصيب خالد في مراسه كان أوفى النصيبين ٠

---

(١) المراس : الجلد والقوة ٠

الفتوح

في سبع سنين قصار فتح العرب كل مـا اقتحموه من بـلاد الفرس والروم ..

فتقوضت في الشرق دولة الأكاسرة ، وتداعت في الشمال والغرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وأفريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه .

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ .

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون في تعليلهـا كل يوم بعلل جديـدة ، ويفيضون في شرح السوابـق واللواحق على النحو الذي يفسر العجب بالمألوف ، ويرد الدهشة الجامحة الى قرار البحث والتدليل .

وهو جهد لا نعرض له في هذا الكتاب ، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه .

انما يعنينا منه شيء واحد هو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التي تضلع بذلك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقي التاريخ منشعب اللسان في استقصاء علل الهزائـم التي نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التي قضت على الفرس والروم بالهزيمـة ـ كائنة ما كانت ـ ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشيء لغيرهم حق الظهور والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى ، ولم تكن المسألة في لبابها كفاحـا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب .

فقد كان في أرض الدولتين عـرب كثيرون يدينـون لهما بالطاعـة وينظرون اليهما نظـرة الاكبار والمهابـة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلـة المسلمين عددا وأمضى سلاحا وأقرب الى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية .

وقد كان هناك عرب كثيرون أنهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح وأغنى بالخيل والابل والأموال. فهي نصرة عقيدة لامراء .

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيهـا ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد ..

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التي تخلفها وتنتصر عليهـا في ساحة النزاع .

اذ كان ادعى الدواعي لظهور عقيدة جديـدة ان النظـم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها .

فاذا قيل ان العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعي النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى ، ولكنـه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على انها حق صالح كأصلـح الحقوق الكونية ، وانها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان .

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول .

أفكـل مناضل متذرع بالعقيـدة صالح في تلـك الآونة للانتصار ؟

ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل ..

ولكن الواقع ان الذين انتصروا بالعقيدة كانـوا رجالا أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيـف يتغلبون بهـا على أعدائها .

وقد أفلح أناس وأخفق آخرون .

فانهـزم عكرمة بن أبي جهـل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد في اليمامة ..

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيـه في وقت واحد ، فسار خالـد من نصر الى نصر ومـن توفيق الى توفيق . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثـم يحجم اخرى حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل ..

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد الى الشام فغرر بـه الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفر فأوغل وراءهـم ولم

ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التي أرسلها اليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة وذي الكلاع الحميري ، فأحدقت به جحافل الروم واوشكت أن تلتف به من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق امداده في أوقاتها لقضوا عليه ..

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها في الغلب وحاجة العالم اليها في تلك الأونة ..

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها ، وكفاية سواسها وقادتها ..

فهي عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون ، وكان خالد ابن الوليد في طليعة هؤلاء الحماة .

* ★ *

سبقه اسمه الى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره وأول فضل يحسب له في ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل عمله في نفوس أعدائه كما يعمل عمله في نفوس أتباعه ..

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه : « أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أيمن طائرا منه (١) ، ولا أصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه . فأطيعوني وصالحوا القوم .. » .

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامة (٢) والدروب ، فما هو الا أن ينضوي اليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بأنه لا يأمر الأمر الا وهو قادر على انجازه . كما قال الشاعر الفارس عمرو ابن العمرد :

---

(١) أيمن طائرا : أكثر بركة وأسعد فالا .

(٢) المهامة : جمع مهمة ، وهي المفازة البعيدة والبلد المقفر .

اذا قال سيــف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائــه من قادة الروم لا تقــل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، ان كانت القصة مــن توليد الخيال ..

قيل ان قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له في أكبر وقائع الشام وسأله : أحق ان الله أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟

قال خالد : لا ..

قال : فبم سميت سيف الله ؟

قال : تابعناه . فقال أنت سيف مــن سيوف الله سله على المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله . فأنا مــن أشد المسلمين على المشركين .

وكل هذا شبيه بأن يكون .

فان لم يكن نبأ خالد وقد وصل الى عدو من أعدائه فالذي لا ريب فيه ان أتباعه كانوا على علم بنبأه فكانوا على ثقــة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون اليــه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجــاح سعيه ، وهذا هــو فضل القيادة الصالحة في نفوس الأتباع .

★

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت في الجزيــرة العربية عدة سنين .

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم في تلك الأعوام : فتن وفتن ، ونبي مات وملك قتل أو قيصر شاخ . فهؤلاء وهؤلاء في العلة سواء .

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء .

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض .

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ٠
وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب ٠

★ ★

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد (١) ٠

وكانت علل مثلها ــ وان كانت أخف منها ــ قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء ٠ وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ في الدولتين :

يقول شراح الحضارات ان الحضارة تبتدىء بمعنى روحي قليل المظهر ثم تنتهي الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعاني الروحية ٠٠

وهذه هي الحالة التي كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهما بالدعوة الاسلامية في نهضتها الأولى ٠

ففي بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور « زرادشت » مصلحهم الديني الكبير زهاء أربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءا على سوء ٠

وخلف في بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم في بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة في فتن وبيلة وخيمة وترف أوبل وأوخم ٠

وما برحوا في طغيانهم وتهافتهم حتى ولي الملك اردشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده الى سابق مجده وتركه في القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس الى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء ٠

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الاسلامية ٠ وكان الملك المعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبرويز فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل

---

(١) السواد : سواد المدينة : ما حولها من القرى والريف ٠

بذوي قرباه ، وأعقب طفـلا صغيرا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهر يزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلته المغصوبـة فقتلوه وولوا عليهـم بوران بنت كسرى أبرويز ، فلم تتم في الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى مـن بني عمومتها الأبعديـن ، ثم قتل وخلفتـه أخرى لكسرى أبرويز فقتلت ، وقتـل من بعدهـا ، الى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الاعياء ••

ومنيـت (١) ، أيامها الأخـيرة بضربة قويـة في حروبها الخارجية : وهي غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها الى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة في القوة والضخامة ، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الاسلاميـة : وتلك هي ضربـة الهزيمة « بذي قار » التي تقدم وصفها في أول هـذا الكتاب • فان هـذه الهزيمة أطمعت فيهـا العرب بعد مخافـة رهيبة ، ولا سيمـا العرب المقيمين بجوار ذي قار وأرباض السواد ، ومنهم جند خالـد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس في العراق ••

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة في الديار الفارسية، فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا في الترف واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة فشاع بينهـم الفقر والضنك والتذمر وبغض الحكام ، ولم يعلموا فيم هم مسوقون وعلى أي شيء يقاتلون ويتفانون • وهي حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران •

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال وهي معدودة في عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التي لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة واطـلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذي يفسر لنا ما هـو أعجب منه ، وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوي

---

(١) منيت : ابتليت •

الحنكة والنظر البعيد ، وانهم قـد ظفروا لأنهـم كانوا على أهبة في هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات ٠

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهـور في التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره ، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوي « المغرور » واجتذبوه من مكانه على السرير في عنف شديد ٠ فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام (١) ولا أرى أسفـه منكم ٠ انا معشر العـرب لا يستعبـد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كمـا نتواسى ـ أي نتساوى ـ فكان أحسن من الذي صنعتموه معي أن تخبروني ان بعضكم أرباب بعض ٠ ان هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ٠ واني لـم آتكم ولكـن دعوتموني ٠٠٠ اليـوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقـوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ؟

كلمات من ذهب ٠٠

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال في جوابه : « واليوم علمنا انكم غالبون ، وان أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذي قوامه من هذه السيرة وهذه العقول» ٠

على ان الأمم لا تقفر مـن الأحلام كل الاقفـار في أظلم ظلمات الجهالة والادبار ، فقد وزن « يزدجرد » شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثـل عقاب أوفى على جبـل يأوي اليـه الطير بالليل ، فتبيت في سفحه في أوكارها ٠ فلما أصبحـت تجلت الطير فأبصرته يرقبها ، فـان شذ منها شيء اختطفه ٠ فلـو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها الا واحدا ٠ وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكـت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم » ٠

---

(١) الاحلام : العقول ٠

وصف صادق من جملة أطرافه .

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدي العارفين به الى رأي متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه في العلاج اذا شارف الجسم الفناء . ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب ، فافترقا مختلفين .

وكما بقيت في أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم (١) بقيت لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة .

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التي تعجل بالهلاك ان وثبها المريض الهزيل ، وانها في الأقوياء لمعوان على المجد والطموح .

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون انهم مقدمون على مباراة في حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل اليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه في أمان .

ففي وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات . فأرسل الى أبي عبيد قائد المسلمين يقول له : أما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وأما أن تخلو بيننا وبينه . فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينتظرون .

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته انه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين في ملهاة .

* *

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت في حال لا تفضل حال

---

(١) مسكة من حلوم : المسكة (بضم الميم) الاثر والبقية ، والحلوم : العقول .

جارتها وعدوتها في محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية ·

ضرب المثل بالجدل البيزنطي في التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية في الدولة الرومانية الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمي ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية ·

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له في نفوس العلية وقواد الجيوش · وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذي حضر عهد النبي عليه السلام ولكنه شقي بالفتن في أخريات عهده وركبته الوساوس في شيخوخته ولا سيما بعد بنائه ببنت اخته ، فاعتقد انه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء ·

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ··· لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل انهم كانوا يفتكون في المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ·

وعاشت في ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذاع وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة في الحيرة · ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة اخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين ، وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولا سيما الدعوة التي تأتيهم من أبناء جنسهم في الجزيرة العربية وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم · واتفق في تلك الفترة انقطاع الهبات التي كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها ·

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Vegetius في علم الحرب ان

نظام الجيش الروماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين • ففي هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذي يعدونه امام أساتذة الحرب بين الغربيين ان « اللجيون » (١) قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله ان مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وان عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة في الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه •

وقد أتيحت للرعية في الشام والبلقان فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التي دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية • فقد كان رجال الجيش الروماني يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع في ماله أو غير مطموع منه في شيء على الاطلاق ، وانما هي العربدة والضراوة والاستخفاف • ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون في المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم انما أخذوها لحمايتهم وحمايتها • فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخي في الدفاع عن الحكم القديم وتمني الغلبة للحكم الجديد • وقد تجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء •

★ ★ ★

بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم •• فمما يروى في هذا

---

(١) اللجيون : اسم كان يطلق في روما القديمة على فرقة من الجيش قوامها بضعة آلاف من المشاة وبضع مئات من المدافعين •

المعنى وهو كثير ان أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أياما فقال له : « هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد • فقال القائد : لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها » •

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطأوا فلم يضربوا ضربتهم في موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لأن أعداءهم مشغولون أبدا بنزاع أو فتنة أو ريبة • أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون • فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التي تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الأسباب التي تدعو اليه •

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادي الوبر في اليمامة لم يطل استقراره في غمده بعد وقعة عقرباء •

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الأولى بذي قار ، أو استئنافا لتلك الواقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع بين الأمم، وهي نيف وعشرون سنة فالقبائل التي ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التي انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية في ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملكهم بعد وقعة ذي قار •

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والاغارة على دهاقينهم (١) في تلك الأصقاع كانا من بني بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر في وقعة ذي قار ، وما برح العداء بينهم

(١) الدهاقين : جمع دهقان (بضم الدال) رئيس الاقليم أو القوي القادر على التصرف أو صاحب المال •

وبين الفرس والقبائل التي تواليهم على أشد ما يكون : وهما المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي • وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم في أطـراف العراق • وقد صحب المثنى النهر في غاراته حتى بلغ القطيف وهجر (١) ولم يقف له أحد في طريقه • فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم في اليمن لدخولهم في الاسلام قضيا علـى تردد الخليفة في أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات •

* * *

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق انه كان لا يبرم أمرا الا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه ••

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية : فانه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، وأمر خالدا أن يتجه الى الابلة ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجـه الى المصيخ بشمال العراق • فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميلـه ، وقال لهما : « اذا اجتمعتا بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتمـا أن يؤتى المسلمـون من خلفهـم فليكن أحدكمـا ردءا للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكـم من أهـل فارس دارهم » •

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد • ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجاة سلفا لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معا ، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين اذا سارا في طريق واحد •

وكان الصديق واخوانه يعلمون ان المسالة في هذه الحرب

---

(١) القطيف وهجر : مدينتان بالبحرين •

مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة ..

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، وأوصى القائدين ألا يقبلا أحدا منهم ، وألا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي .. فعجب أصحابه وقالوا له : أتمده برجل واحد ؟ .. قال : نعم ! .. لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين انه مدد كاف وأي كفاية ، فان ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال قرابة عشرة آلاف عدا جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة في ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها ، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التي تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين .

ففي الوقعة الأولى دعا القائد الفارسي ــ هرمز ــ خالدا للمبارزة قبل التحام الجيش ، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربي بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسي بعدده الكبير على الجيش العربي بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين ..

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذي دبره هرمز لولا انه أخطأ الحساب في اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد في مبارزته ، فظن ان الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع في جولة واحدة وفوجيء

أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالاجهاز على قائدهم ، واذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب في قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجاة ومهابة هذه الصولة العاجلة • فكانت، وقعة اليوم وقعة رجلين في جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التي ترسمت خطاها وسارت على هداها ••

سار خالد الى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية • وأتم في سنة واحدة ما أعيا الرومان أن يتموه في أجيال •

وقد تكتب في شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكننا لا نتوسع في ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا في هذا الكتاب لمقصد واحد،وهو الرجوع بها الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه •

وفي هذا حسبنا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط في واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين أخطأوا في حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبي عبيد وخالد بن سعيد ، ولكن خالدا لم يخطىء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجىء ، وكان أبدا كما وصفه عمرو بن العاص : « في أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه في بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذي هو أصلح لحركاته وأعون له عليه • ومن علمه بفنون القتال انه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء • فاذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يغنون فيه ، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية •• فان

طرأ في خلال مسيره ما ليس في الحسبان فمعوله في الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق (١) وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التي أشخصها (٢) الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها ٠

فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا في ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء ٠

وقد كانت تعبئة خالد في المسير تشبه التعبئة التي جرى عليها العرف في أيامه ، وهي قسمة الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ، وردء يلحق به ليحمي ظهره أو يلبث في موضع من المواضع كمينا ينزل الى الساحة على غير انتظار، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه ٠٠ ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحي بها ضرورة الساعة ٠ فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويتراجع أمامه أو يمعن في الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلي له سبيل الهرب،حسبما تدور به المعركة في أثنائها أو توحي به طوالعه قبل ابتدائها ٠

ثلاث من طرائق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدي بن حاتم صاحبه في حرب بني أسد ، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعا الى الجنوب الغربي من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقي والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب ٠

---

(١) الباشق : (بفتح الشين) البازي وهو ضرب من الصفور
(٢) أشخصها : بعث بها ٠

وكتب الى هرمز قائد الفرس يخيره بين الاسلام والجزية أو الحرب ، ويقول له في ختام كتابه الوجيز : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ثم عدل الى كاظمة بعد أن كان موعده الأول « الحفير » لانها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه ٠

وهناك التقى بجيوش الفرس ــ وعلى رأسهم هرمز ــ فوقعت بينهم الوقعة التي سبقت الاشارة اليها وتعرف باسم ذات السلاسل ، لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا في القتال ولا يتأتى لهم الفرار ان أرادوه ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة الى النية القوية ٠

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه انهم مهددون في « المدائن » عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت أردشير ٠ فأدرك فلول هرمز في « المذار » وضمهم اليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة اليه فكتب الى خالد يستأمره ويستمده ٠ فكان خالد هو الجواب ٠٠

ووصل خالد الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال ، فنهض اليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان ، وأراد معقل أن يحمي خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن ٠ وبرز عدي بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين ، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة ، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا ، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد ٠

ورانت الحيرة (١) بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس ، فخيل اليهم ان في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه ، وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها ، فاستعانوا بأوليائهم من ابناء القبائل العربية فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس ٠

وكان خالد كعادته في الحيطة والمبادرة ، فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره ٠ وتقدم الى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه ٠ فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان ٠ وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس انهم من النصر قاب قوسين أو أدنى ٠ ثم ظهر أحد الكمينين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول ٠ فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد في مهربهم ٠٠ فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب ٠

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة « أليس » وهي أعجب الوقائع في حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هي الوقعة الحاسمة في النزاع بين المجوسية والاسلام ٠

راع الشاهنشاه (٢) تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ

---

(١) رانت : غلبت وغطت ٠

(٢) الشاهنشاه : ملك الملوك (فارسية) ٠

العرب الموالين له أن يؤخذوا في حماهم ، وأنفوا أن يهاونوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم ، فتلاقوا في الوقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهي اليس ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم ان تربي في العدد والعدة على كل جيش نزلوا به الى الميدان في المعارك الماضية ٠

وهنا تتراءى في الموقف أصبع المقادير ٠٠

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذي أمره الشاهنشاه بالمسير الى أليس أناب عنه قائدا اخر يدعى جابان وشخص هو الى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الامر على وجوهه في مسائل شتى لا تغني فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة ، ولياتي من المدائن بمدد أخر يضاف الى جيشه الاول والى جموع القبائل العربية عند الفرات ٠ وقال لجابان وهو يودعه : « كفكف نفسك (١) وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، الا أن يعجلوك » ٠

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجود بنفسه ، وليس نظام الوراثة على عرش فارس في ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع في البلاد أكثر من المتربصين ٠٠

فبقي « بهمن » في المدائن ، ووصل جابان الى « أليس » قبل أن يصل اليها خالد فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام ٠ ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله ٠ فلبثوا على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلو الى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا ان خالدا يلقي أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال في كل لحظة ، ولانهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة في «الألعاب الرياضية» : انما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين ٠

ولكن خالدا ضرب ضربته الأولى في الجموع العربية فقتل

---

(١) كفكف نفسك : اصرفها وأبعدها ٠

قائدها وأثخن القتل في صفوفها ، وثـار الفرس الى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالدا حتى يفرغ من الجموع العربيـة ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى ٠

فثبتت الجمـوع العربية حـين أسعفتها النجـدة ، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم انه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير ٠ وابتلي المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم ٠ فاشتد الأمر بخالد وثاب الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحـه أكتاف أعدائه ، « فـلا يستبقي منهم أحـدا يقدر عليه حتى يجري نهرهم بدمائهم » ٠ وفي هذا النذر بقية من البدويـة المخزومية لا تخفى على اللبيب ٠

وطال صبر الفرس فنفد ٠٠٠

وتساقطت رؤوس العرب الموالين لهم فجزعوا ٠٠٠

ولاحت لخالـد لوائح النصر الذي سأله اللـه ، فلم ينس نذره ونادى في المسلمين : « الأسر ٠٠٠ الأسر ٠٠٠ لا تقتلوا الا من امتنع » ٠ لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء ٠٠٠ فليجر اذن بالدماء ٠

وأمر بضرب أعناق القوم في النهر وقد حبس ماءه ٠ فلم يجر بالدماء ! ٠ لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض كما قال له أصحابـه فأطلق الماء فسال بالـدم أحمر قانيا ثلاثة أيام ٠

* * *

وحمادي ما يقال في الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة في تاريخ صدر الاسلام انها كانت شرعة الحرب في تلك الأيام، وانه كان يدين بها أناس صنعوا بالملل الأخرى مثل مـا صنع بهم في هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة في حروبهم مع العرب والدولة الرومانية. وان خالدا حسب ان هذه الذبائح قربان الى اللـه ٠٠ ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب ، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك في صدر رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد ، وأكبر الظن عندنا انه لو كان قائد الجيش

رجلا ممن طالت صحبتهم للنبي عليه السلام كأبي عبيدة أو سعد بن أبي وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد في معركة أليس • فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى في معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى في القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز قتل الأسرى من غير مشركي العرب ، فلم يجزه من آجازه منهم الا لحسم مادة الفساد ، أن خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة • وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الساسانية خليقة — ولا نكران — بضربة من أمثال هذه الضربات ، فقد اعيت فيها الحيلة من دعوة وافناع ومصابرة ، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى في تلك المعركة الشعواء ، وهي في غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الاقدار ، وتلك هي المعارك التي يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه •

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم ان الشر المحض والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان • فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم ، وكان من جرائها ان الأمصار التي كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقي بأنفسها في احضان غيره من قادة المسلمين ، كما أسرع أهل دمشق الى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد •

*

كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البرد (١) الى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ

(١) البرد : جمع بريد •

الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد • وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين في سرعة الظفر بدولة الأكاسرة • فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشراها الى الجزيرة العربية : « يا معشر قريش •• عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١) •• أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد » ؟•

ثم سلمت الحيرة ــ بلد النعمان وموئل نابغة بني ذبيان ــ فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح في بلد من البلدان ، لأنها كانت في عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان •

الا ان الخليفة الذي عرفناه رجلا حصيف الجرأة ، جريء الحصافة ، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين • وأدركه الحذر في هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح الى الاناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق • وحجة الخليفة في ذلك أظهر من أن تخفى • فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم في الشام من اليسار • ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده الى حمى الدولة الفارسية في عواصمها من وراء النهرين ، وقد نما اليه ولا شك ان فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا في الصحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفي الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطىء الفتوح ، فان لم يخرج عياض ابن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها ما حولها فكل خطر هناك محتمل ، وكل عجلة قد تجر الى وبال •

---

(١) خراذيلة : الخراذيل قطع اللحم الواحدة (خرذولة) •

ولكن الفرس الكريم الذي يحبس في الحلبة يعاني من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار . فحز في طبع خالد جذب العنان وأقام في انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء . ولو كتب لرجل غيره أن يظفر في هذه السنة المستريحة بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لأنه خاض ثماني وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى . وله في كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور .

وقد عرضت لخالد في هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل في الحساب أو تأتي من هنا وثم (١) على غير حسبان . فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذي خلق للتقلب في أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب في الماء ، فلا تفجأه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه .

البدوي لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء ــ وهي الجمل ــ ولكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفي مطاياه مشقة السير . فلم تنقله السفن الا قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع ، لأن الفرس تسامعوا بمسيره في النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه ، ولو بدوي غير هذا البدوي فوجىء بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع في « حيص بيص » وترك السفن في قاعها ورجع الى مطاياه .. ولكنه أبى الا أن يبلغ السفن الى حيث شاء . فانبعث في نفر من أصحابه كالبزاة الى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك في حراستها وفي انتظار السفن التي ارتفعت براكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير ..

وحفروا له في الأنبار خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون اليه من أعلاه، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه

---

(١) من هنا وثم : من هنا وهناك .

أن يعبر الخنـدق كثيرا ولا قليـلا بل أمر لتوه بنحـر الابل العجاف وألقى بها في الخندق فسدته ودعا جيشه الى العبـور عليها • فأصبح من في الحصن سجناء في يديه ، وتوسلوا اليه أن يرسلهم في سبيلهـم مجردين مـن السلاح والمتاع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم أليس • فأجابهم الى ما طلبوه •

وعلم ان عقة بن عقة يحشد له في عين التمر حشودا مـن تغلب واياد وأصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس انـه ند للعرب لأنه أخبر بهم من غيرهم • فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة • وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصحبه : اكفونا ما معه فاني حامل عليه بنفسي •• ثم احتضنه وحمله أسيرا وهـو لا يتوقع أن يؤخـذ من أساليب القتال العربي بهذا الاسلوب العجيب في كل قتال • وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز في الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ، فيصيب ما أراد •

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه في كل معركة بما تقتضيه وتوحيه اليه •

فكان اذا لقي العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبـة : « ويحكم أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فمـا تنقمون من الانصاف والعدل ؟ » •

وكان يعين الحمية الدينية في جيوشه بما يغري النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة ، فأباح الأسلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد في بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت في يديه • وقال لهم يوما بعد وقعة المذار : « ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب ؟ الله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هـذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه » •

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعني كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص . قال في عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد .. نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به . عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء على أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها . وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم . وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة .. وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنه اثنتي عشرة هجرية » وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين من زراع تلك البلاد . فللمرة الأولى في التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم ـ أو مستغليهم ـ ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان . وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه ـ مسلمين وغير مسلمين ـ انه تكفل بالعبد اذا تحرر ، وبالغني اذا افتقر ، وبالعائل اذا انقطع عائلوه . وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد في كتاب خالد . قال : « اني دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن مصالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في اعطاء الجزية واني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحوني على ستين ألفا وشرطت عليهم ان عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل : ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، ان أخذه أشد ما

أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو اصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه · ولهم كل ما لبسوا من الزي الا زي الحرب ، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب · وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عما لهم منهم ، فان طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به ، ومؤونة القواد من بيت مال المسلمين » ·

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية في السواد وفي الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فلا هي تعينهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة ، بل هم بهذه العواقب ينعمون واليها يتشرفون ·

★ ★

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار في العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من الحوادث التي هي أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة في عهد

اقبالها وتأتيه الأمة في عهد ادبارها. فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الأخرى كالضربة التي تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه .

الفراض في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثه والمتنازعين عليه . وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيد : (١) اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم . فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيد بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم . وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم . ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين .

على انه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد « طهر » جوف الصحراء من جموع الأعراب التي تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله « عياضا » قرابة عام . فلما ترامت أنباء فتوحه الى عياض كتب اليه يستشيره ويستنجده . فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليلا تأتك الجلائب
يحملن آسادا عليها القاشب (٢)
كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة اسبوعين فقطعها هو في أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء ، فجعل

---

(١) هو أبو عبيد بن مسعود .
(٢) السيف اللامع : القاطع .

القوم جميعا بينه وبين عياض • وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش في نفوسهم من الوجل والحيرة • وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين في الحصن ومن حوله • ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء • ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودي بن ربيعة ، استباها خالد لنفسه وقيل أنه اشتراها • ثم بنى بها وأقام معها في دومة الجندل أيام مقامه فيها •

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالا (١) لغيرهم • ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات • فغزاها وفرغ منها كما تقدم • وبقيت له في العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع ، فلم يلبث أن قضاها •

بقي على موسم الحج اسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات التي أمده الله فيها بنصره وعونه •

أيفوته قضاء الشكر في هذا الموسم وأداء الفريضة في موعدها ؟ ولم ؟ الخوف من الأعداء ؟ العائق من بعد الشقة ووعورة الطريق ؟ ألعذر من الأعذار التي يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عليها •• ففي خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج في ذلك العام •

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التي تنم على فرط الثقة بنفسه ولا تنم على شيء غير ذلك ، ولكنها في الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على

---

(١) نكالا لغيرهم : عظة وعبرة •

ثقته بنفسه • فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية اذا جد في غيبته طارق داهم أو خطب حازب • وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم •

*

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، واعجاب • وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذي أصابه في حروب الدولة الفارسية ، وأن يسارع الى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد في الله حق جهاده •

وقال له : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا واياك أن تعود الى مثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجي من الناس نزعك • فليهنك أبا سليمان النية والحظوة • فأتمم يتمم الله لك • ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك أن تدل بعمل فان الله له المن ولي الجزاء » •

وكتب الى أبي عبيدة في الشام يخبره بمقدم خالد اليه ، ويقول له في كلام صريح : « سلام الله عليك • أما بعد ••• فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع • فاني لم أبعثه عليك الا تكون عندي خيرا منه ،ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك • أراد الله بنا وبك خيرا والسلام » •

فأرسل خالد الى أبي عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه : « أتاني كتاب خليفة الله يأمرني بالسير الى الشام ، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها • والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته • فأنت على حالك الذي كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرا •• فأنت سيف المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك » •

* * *

وأول خاطر سبق الى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس الى حرب الروم أنه عمل من أعمال « الأعيسر » كما يسميه ويعني به عمر بن الخطاب ، وأنه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله الى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوي الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين •

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره • اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أجلاء الصحابة • فهذا مزيد من الفخر يتطاول اليه المتطاول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه عليه • وانما اختار الخليفة خالدا لأن العراق كانت في هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان في جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ، ولأن خالدا كان أقرب مدد الى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة (١) تضاف الى قواتهم في حرب الرومان •• فاختاره الخليفة وهو يقول : « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » •

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قل أو كثر اذا نيط به أمر من الأمور • فلما ندب لجهاد بالشام نظر فاذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة الى ستمائة ميل على حسب الطرق التي يسلكها ، وهي أربع يختار منها أصلحها لانجاز العمل الذي وكل اليه •

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع بالمطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر في القتال الحاسم بين المسلمين والرومان ••

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلأ ، ولكنه بعيد يطول السير فيه ••

---

(١) قوة فاضلة : زائدة •

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذي سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغرور . انها لخمس ليال جياد لا تصاب فيها ماء، مع مضلتها .. » .

وأيسر شيء على القارىء الذي عرف خالدا أن يعلم أي هذه الطرق يسلكه خالد .. فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذي هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء وأبعدها جميعا ان يتوقع العدو هجوما منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذي خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الاخير رافع بن عميرة الطائي – ولا أحد يغني غناءه في السير بتلك المفازة المهلكة وان كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير :

« ويحك انه والله ان لي بدا من ذلك » .. ان القوة تأتي على قدر النية ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله » .

ويروي الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : أكثروا من الماء . من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله .

ثم قال لخالد : ابغني عشرين جزورا عظاما سمانا مسان فأتاه بهن فظمأهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجترن ..

وأشار على خالد أن يقتط أربعا من هذه الجزور كلما نزل منزلا ليسقي الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء . ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم في المفازة .. فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج في موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها . فلم يجدوها . فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا : هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم . انظروا انظروا » فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذرا قد بقي منها وقطع

سائرها • فكبروا فرحا وشكرا وحفروا في أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذي دونه كل خطر من لقاء الأعداء •

وفي ذلك يقول أبو أحيحة القرشي :

لله عينا رافع اهتدى ... في مهمه مشتبه الى سوى
والعين منه قد تغشاها الردى ... معصوبة كأنها ملأى ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا يرى ... من الصوى تترى له بعد الصوى
فوز من قراقر الى سوى ... والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس اذا ماسارها الجيش بكى ... في اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله انس يرى ... هذا لعمري رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذي سلكه خالد معروف ، والقدرة عليه هي موضع العبرة والتأمل في هذا المقام • أما نحن فالذي نراه أن خالدا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الابل وهي لا تجهد من الظمأ الا في أيام • وأن الابل لا تخزن الماء في جوفها وان لم تجتره دون أن ينصرف منها ، وان عشرين جزورا تمتلىء كروشها بالماء لا تسقي الخيل في الجيش كله وعدته عشرة آلاف • فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة الى التخفيف الى الاقدام ••

والأمر الذي لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدا سار بجيشه ــ وعدته عشرة آلاف ــ من عين التمر الى قراقر ، ثم من قراقر الى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم الى تدمر فالغوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يوما لأنه كما قال الشاعر كان يطوي مسافة اليومين في يوم واحد ••

« في اليوم يومين رواحا وسرى •• » •

خرج من الحيرة في أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة في تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار ..

* * *

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين في الشام تشرع في خطة جديدة للتراجع الى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة في جمع واحد ينهض لها ويحول دون الاحداق بكل جيش منها على انفراد .

وكان الخليفة قد سيرها ـ بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة ـ مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة الى وجهات متعددة .

فسير يزيد بن أبي سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف الى الجابية ، وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل في جيش صغير ليحمي ظهور من يحتاج منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة .

ولا نعلم على التحقق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش في طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة ، ثم رغبة الخليفة في تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد اذا أوغل في البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد ، فان الجيوش الأربعة يكون كل منها مددا لصاحبه ومانعا للالتفاف به أو منقذا له من الالتفاف اذا وقع فجأة . وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية في مواقع البلاد الداخلية ، اذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ، واطمأنوا الى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف ، وهي حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزداهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة

الرابعة وهي حملة خالد بن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع في روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين في وقت واحد • فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش في زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل والاسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون في مقابلة هذه الطوارىء ، كما أوصاهم بالرجوع اليه •

وقد نجحت هذه الجيوش في وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين •

ثم نما اليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في انطاكية وجيش آخر في جوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفا ، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبانا للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشيء القليل ، لأنه يربي على ثلاثة أضعاف الجيش العربي كله بعد قدوم جيش خالد اليه ، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير ••

فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم في بضعة آلاف •

ولعلهم يصبحون في تراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ،وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها في أعقاب جيش كبير أو صغير •

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص • وهذا القول الأخير أدنى الى الواقع لأن عمرا كان يتراجع في الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى اليه ، وكان من الموافق لخطته أن توافيه الأمداد في ميدانه بفلسطين •

وأيا كان صاحب الرأي الأول في هذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين في أماكنهم هو الباعث له أن يستدعي خالدا من العراق الى الشام . فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب . فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ في ترتيب الوقائع بعد وصول خالد الى الشام . ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر في « أجنادين » بالجنوب . لان البدء بأصغر القوتين واخلاء الجنوب قبل الانتقال الى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين ، وان معركة «أجنادين» لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين ، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد في صعيد واحد . ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى في اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان في فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير في اليرموك .

وعلى أية حال هزم الروم في « أجنادين » وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين في اليرموك ، على اختلاف كثير في التواريخ ، واتفاق في تصوير خطة القتال .

ويحسن بنا قبل أن نستطرد الى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء ..

فالجيش الروماني كان أوفر عددا وأكمل عدة بغير خلاف ، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة انه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح اذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه . لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون

على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخـر ، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التي حسبت من مزاياهم ، فهي الى النقص هنا أقرب منها الى المزية ٠

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين ، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان ٠ فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين ٠ ٠

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع الى قيادة واحدة ، وفي صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الانساني الى الثبات والاستبسال : غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا اذا كتب له الفلاح ، وكفى باغراء النعيمين ٠

كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية : بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبي جهل وعقائل أناس من الجند والقادة ٠ وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن ٠ فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه ، وان رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ، ورفعهن اليه أولادهن وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الاسلام » ٠ ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين : أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه ٠

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا في عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوي شوراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم في جبال الروم » ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه ٠

أما المسلمون فالصلح الذي فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم ٠ الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل

شرط من الشرطين فالحكم للسيف ..

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم في نفوس أعدائهم مهابة على مهابة . فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور ـ أخي القيصر ـ حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم . فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ... فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج » .

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه .. وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم ـ وهم الغارقون في المناعم والملذات ـ يقاتلون في سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم في المناعم واللذات ، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية .

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التي هم مقبلون عليها : هي معركة فاصلة في مصير الشام ما في ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا في مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية . فان هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته في بلاده الآسيوية والأوربية ، وان هزيمة الجيش العربي معناها هزيمة الجيش الأكبر الذي لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغري القيصر الروماني بارسال قبائل الشام في أعقاب المسلمين الى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الاسلام ممن لا تزال لهم ترات (١) تغلي في حنايا الصدور ..

فاستعد الفريقان غاية ما في الوسع من استعداد .

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما

---

(١) ترات : جمع تره وهي الثأر .

لأنه يوافق طلبة القيصر (١) من مكان « واسع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادي وجيش المسلمين . أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : « أيها الناس : أبشروا ... حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير » .. تحاجز الجيشان أشهرا لا يشتبكان الى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة .

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه ، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدي ولم يزل يعبيء طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء .

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة . ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح في سبيل الملة والدولة والمجد القديم .

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الايمان .. ثم كثرت الحركة أياما في جيش الروم فعلم القادة المسلمون انهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبتديء المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد في نظام واحد . فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعا في تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه .

قال لهم قبل ابتداء القتال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي : اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فان ذلك لا يجمل ولا ينبغي .. وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه الرأي » .

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذي أنتم فيه أشد على

---

(١) طلبة : « بكسر اللام » الشيء المطلوب .

المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم ، ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله ... ان تأمير بعضكم لا ينقصهم عند الله ولا عند خليفة رسول الله .. هلموا .. فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور (١) الامارة،فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني اليكم اليوم » .

فأسندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك .. ثم أسرع الى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذي رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « في العمق » كما يقول العسكريون في هذه الأيام .

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبي سفيان على الجناح الأيسر ، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب . واتخذ مكانه في كبة الجمع ولجأ الى طريقته التي اختارها لحرب بني حنيفة وهي طريقة الكراديس ، لأنها أصلح للنفاذ في الصفوف ، وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء .

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة ، على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله في حرب اليمامة عكرمة بن أبي جهل ، وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين . وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها في القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسيا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع ..

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الروماني اذا أمعن في الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا

---

(١) فلنتعاور : تعاور الشيء : تداولوه فيما بينهم .

ارتد الى الوراء ٠

وفرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى ٠ وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه في حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثبت عليه ويمقت الكذب ويجزي بالاحسان احسانا ، لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول » ٠

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان ، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة في القلب يرتجزان (١) واختير يوم القتال في يوم ريح سموم سافياء في حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم ٠

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق ، ولكنه بدأ كما تعودنا في حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الايمان والاعتصام بنية الفداء ٠

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا الى عزماتهم بنخوة الايمان ونخوة العرض والانفة ٠ فضرب النساء في وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة ! » وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : « قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت ؟ » فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير لا يقوم في وجههم قائم ، وصدموا الروح حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد

---

(١) يرتجزان : ينشدان الرجز ، وهو ضرب من الشعر ٠

قتل في طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ، ولم ينج منهم قط الا جريح مثخن بالجراح · وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم ··

* * *

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته ، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الخنادق فلحقهم بها المسلمون ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون في هوة الواقوصة أو وادي الرقاد·وقيل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغى ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا في الوادي فرادى وجماعات · اذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار · فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب ، وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت · فكأنهم قد فروا قاعدين !

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن يودع الشام ·

العــزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذا كان له « دور تاريخي » يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه ••

وآيـة انقضاء ذلـك الدور أن يبلـغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا التي لا قمة وراءها ، وانه يعدو هذا الدور فاذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثـل حقه في أدوار التاريخ ، أو يعدوه الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه ، وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه ••

وقد بلغ خالد في معركة اليرموك قمته العليا التي لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردة ، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة ، ووحد قيادة المسلمين في حرب الرومان ، فصدهم الى ما وراء حدودهم ، ودخلت ميادين الشام بعدها من أعمـال يصح أن تسمى بالأعمال الخالدية • فهي بين حصار أو مراوغة أو تسليم • وانما يراد خالد لتحطيم قوى الأعداء التي تعز على التحطيم •

وان يكن من عمل « خالدي » في ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله في مرج الروم ، ثم عمله في قنسرين (١) . •

ففي مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلهمـا قائـدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالـد ، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجيء الجيش العربي عند دمشق بقيادة يزيد ابن أبي سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين • فأتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجيء يزيد بن أبي سفيان • فأوقعاه في الفـخ الـذي نصبه ، ولـم يرجع خالـد الى أبي عبيدة الا وتـوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال :

نحـن قتلنا تـوذرا وشـوذرا
وقبله مـا قـد قتلنـا حيـدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

---

(١) قنسرين وقنسرون ــ كورة بالشام ــ أعجام الاغلام ، ص ٢٣٢ •

وفي قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوه وأبرموه • فقال لهم محنقا : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » وأبى أن يصالحهم بعد ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها • فختمت بذلك ضرباته الخالديات •

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخي » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شيء ولا تغير مجرى الحوادث في أعقاب هزيمة الرومان •

*

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس وفتحت مصر وشطر من أفريقية الشمالية ، وكتبت بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم في المقدرة ولا يقلون عنهم في المقصد والنية ، وكل زيادة في عمل خالد لا تضيف اليه مجدا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الاسلام أيدياكثيرة تعمل له وتدفع عنه • وليس هو بمستغن عن تلك الأيدي الكثيرة بيد واحدة ، بالغا ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء •

قلنا في أول هذا الفصل ان انقضاء « الدور التاريخي » لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا ان غناء الآخرين في هذا خيرا من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق •

وفي ميدان الشام ــ بعد معركة اليرموك ــ كان أبو عبيدة ابن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد • لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال (١) الحقود وضمد الجراح

(١) استلال الحقود : ازالتها •

وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبي عبيدة ويضيف بضربات خالد • فأبو عبيدة يسرع الى المسالمة اذا فتحت له أبوابها ولا يبطيء عن الحرب اذا وجبت عليه أسبابها ، فان كانت بالمسالمة جدوى فذاك ، وان كان يوم الضربات الخالديات فهي لديه يرمي بها في مراميها • وانما يكون العمل الأول هنا لمن يسالمهم ويتقبل التسليم ، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون في العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب الديار ودك الحصون •

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا ، كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها • فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبي والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولولا انه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين •

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا باسناد الأمر الى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم ••

* * *

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان •

ورأي الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف • فقد كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين ، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وقال وهو يجود بنفسه: انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذي وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده ••

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق في رئاسة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه في مقال صريح : « •• انه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة

منك وأقدم سابقة ، والنبي عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ٠

وكما عرف رأي الفاروق في أبي عبيدة عرف كذلك رأيه في سابقة الاسلام والغزو على الاجمال ٠ فانه خالف الصديق في التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق في توزيع الأرزاق والأنفال ، وجعل للرجل نصيبا يختلف باختلاف سابقته في الاسلام والجهاد ، لأنه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف » ٠

فاقامة أبي عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره ، وبخاصة حين تكون امارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول ، انما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم ٠

* *

وبهذه المثابة تكون ولاية أبي عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون « قضية » بين الفاروق وخالد على الصورة التي هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورا للجدال ، والتنقيب عن الأسباب والأقوال ٠

واذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية فولاية أبي عبيدة كانت في اعتقادنا أصلح الولايات للشام في تلك المرحلة التي انتهت اليها حرب بين المسلمين والروم ٠

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التي انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى ، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة ٠ وهذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه اليها في مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكري يجري الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء في ضربة طاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحراج ، كما كان دأب خالد في بطشاته التي لا تبقي بعدها بقية لغير الاجهاز ٠

وإذ تكون هذه هي المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك ، فلا خلاف في أي الرجلين أولى بالولاية عند ذاك : أبو عبيدة ابن الجراح أو خالد بن الوليد ، سواء أكان الخليفة على رأي الفاروق ام كان على غير هذا الرأي في أمين الأمة وفي سوابق الاسلام والجهاد .

*

ونما الى الفاروق بعد ذلك ان خالدا وعياضا أغارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وان الاشعث بن قيس قصد خالدا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من « ذوي البأس وذوي الشرف وذوي اللسان » .

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبي عبيدة : « أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من اصابة أصابها ؟ فان زعم انه من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم انها من ماله فقد أسرف « وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله — وكان يومئذ يولى أمور قنسرين — وأن يقاسمه ماله نصفين ..

فصدع أبو عبيدة بالأمر ، وجمع الناس وجلس على المنبر ، ودعا بخالد فسأله : يا خالد .. أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة . فوثب اليه بلال مؤذن النبي عليه السلام وقال له : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول عمامته ونفضها وعقله بها وخالد لا يمنعه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالي . فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا »

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا . فقال . خالد : أجل ، ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ..

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله

وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال في بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلني وآثر بها غيري » · « فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ، فانها الفتنة · فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حي فلا » ·

ثم قصد الى المدينة فلقي الفاروق فقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين · وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر » ·· فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء ؟ ·· قال : من الأنفال والسهمان · ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها الى بيت المال · ثم قال له : يا خالد : والله انك علي لكريم ، وانك الي لحبيب ، ولن تعاتبني بعد على شيء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه : « اني لم اعزل خالدا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليه ويبتلوا · وألا يكونوا بعرض فتنة» ·

❋

تلك قصة خالد والفاروق ··

وهي قصة تؤلم وتؤسف ، الا ان الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التي لا محيد عنها ، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق ··

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة · لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير ·

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس عمر أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الأسباب التي كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة ·

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق الى وهم بعض المؤرخين ان عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما في أيام الصبا ، وان خالدا صرع

عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدا عليه (١) ..

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم الى ظن من هذه الظنون . فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ، لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا انه لو أحس في نفسه نية ذحل (٢) أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه .

فالحق ان حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته . فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة . وقد عزل زياد ابن أبيه ثم قال انه عزله « لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله » وكان يحسب انه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو انه من قريش . ولقد تبين بعد انه من قريش ..

* * *

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه في الأموال ، وبذلك أشار على أبي بكر فوافاه الحساب من كل وال الا خالدا أبى وأغلظ له في الجواب حيث قال : « أما أن تدعني وعملي والا فشأنك وعملك » .

فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه في حساب المال وألا يعطي شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله . فلم يطقها عمر وقال : ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه » .

هذا الى الخلاف بين سنن عمر في سياسة الناس وتصريف الشؤون وسنن خالد التي طبع عليها . فعمر كان يحب الاناة

---

(١) واجدا عليه : غاضبا عليه .

(٢) الذحل : الحقد والعداوة .

(١) المكيث : الرزين المتأني .

قبل القتل والقتال ومن ثـم كان انكاره لمقتـل بني جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى السواد خلافا لمـا صنع بهم خالد في معركة أليس أو نهر الدم كما سميـت بعد ذاك • وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن يقود جيشـا هو كفؤ لقيادته قائلا له : لولا انك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش • والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث » (١) •

واذا كان عمر قد أوجس من « عقل زياد بن أبيه وهـو مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر • انه لعظيم النزعة الى الاستقلال ، وانه لمن بني مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين ، وله صهر في سائر القبائل والبطون ولأبنائه أخوال في بني تميم وبني حنيفة ، ولشهرتـه سحر في نفوس الناس بفعل الأعاجيب ، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور في دولة الاسلام • فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يغرز في عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال •• فبعد غلبته على الاكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره في الامصار ماذا يجري لو وهن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ؟ ••

اما و « ابن الخطاب » حي فلا ، كما قال خالد • ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة اخرون من حقهم ان يعملوا كما عمل، ومن أثرهم أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره •

★ ★ ★

أما الاحتمال الآخـر ـ ان حـدث ـ فالخطر فيـه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل •

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطاس الـذي يرد اليه حساب جميع القواد والولاة • ولم يفت ذلك خالدا بعد هدوء الغضب والمثوبة الى الرأي فقال في مرض وفاته لأبـي

---

(١) المكيث : الرزين المتأني .

الدرداء : « قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا وحضرني من الله حاضر عرفت ان عمر كان يريد الله بكل ما فعل • كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث الي من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدرا • وكان يغلظ علي وكانت غلظته على غيري نحوا من غلظته علي ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر علي عنده وما كان الا على النظر ــ كنت في حرب ومكابدة وكنت شاهدا وكان غائبا فكنت أعطي على ذلك ، فخالفه ذلك من أمري » •

ولقد توفي رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ عهده الى عمر بن الخطاب ••

* * *

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التاريخ فنرى ــ كما أسلفنا ــ ان الفاروق انما ختم دورا ختمه القدر وانقضت به الحوادث • فلم يكن بعد القمة التي ارتفع اليها خالد في ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع تلك القمم التي تسنم فيها صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هي قمة التجمل والاخلاد الى الواجب الأليم يوم عزله • فهي والله لما يحسب له الى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور •• وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع •

عبقّريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى ، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه ، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فاذا بهم يرذون النصر فيها الى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة •

كسب بعض المعارك لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس •

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار ، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف •

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط فقيل ان هذا كان من دواعي النصر العاجل ، وفي معارك أخرى قيل ان دواعي النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين •

وكثيرا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل ان ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة حتى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء ••

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الاطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرأه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة •

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التي توجز لك البلاغة الشعرية في كلمات ثلاث وهي : الوزن ، واللفظ ، والمعنى • ولا خطأ في هذا الايجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب •

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد انها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان ، وان القائد الموفق هو الذي يلمح هذه الفروق فيعمد الى العمل اللازم في الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ، ولا يتقدم أو يتأخر ، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق ..

واذا كان كل شيء في المعركة يتوقف أحيانا على كذا أو كذا من الخطوات في السبق الى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار في طول الرماح ، وكذا او كذا من التفاوت في سرعة القذيفة هنا أو هناك . أو كذا وكذا من الحركات الى اليمين أو الى الشمال والى الأمام أو الى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر في المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل، لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين في الأسلحة والمواعيد والعدو والحركة غير ميسور . وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل ..

واجمال القول في توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهي الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

كان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة اليها . فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال .

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى في الحرب من الحصار والاحتلال وعلم أن الخبر قوة وسلاح . فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه .

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن الفقرة الأدبية يعززها ما استطاع في جيشه ويضعضعها ما استطاع في جيش عدوه .

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع في نفوس أعدائه فيسري اليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة ٠

والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل ، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفي أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل ، فاذا قال : « ان الصبر عز وان الفشل عجز وان الصبر مع النصر » فليست هي أصداء تمر بالهواء ولكنها هي العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه الى كل مسمع وجنان ٠٠

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة في صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم الى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار ٠

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التي تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فاذا بالرجل الفرد يبلي في قتاله ما ليس يبليه عشرات ٠٠

* * *

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد الى هذا المقتل في منازلات للمستبدين والطغاة ٠ فانهم في جيوش الأمم التي طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم ٠ فاذا أصيب القائد في الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات ٠

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التي يجمعها « الخبراء » في عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات ٠٠

قرأنا في كتاب « فن الحرب اليوم » (١) لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغي أن نحضر في أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أي النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب • والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر • ومجمل ما يقال بعد هذا ان الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وان الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب • لأن الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف ، وانما يتأتى الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات » •

ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شيء بفواته عنه ، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغني الصفوف وبالكراديس حيث لا تغني الا الكراديس • وفي هذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان : وهما الاستطلاع وكتمان الحركات • والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أي موضع تكون » ••

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجري في عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجري الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفي خلالها ، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أي على النظام الذي تتألف به حين تدعى الى الهجوم » •

وهذه هي ربيئة (٢) خالد للاستطلاع ، ومسيره « على التعبئة الكاملة » التي يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذي كان

---

(١) تأليف الاميرال باكون والجنرال فلو ومارشال الطيران باتريك بلايفير •

(٢) الربيئة : الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه •

يسير عليه ، ثم يدخل في التحام قريب ولا يطيل في موقف التقاذف بالنبال والسهام .

وتقرأ في كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » لمؤلفه ونترنجهام الذي كان محررا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركات وقوة الاصابة وتدبير الوقاية هي الان ـ كما كانت في كل زمان ـ بعض مفاتيح النصر التي لا شك فيها ، فاذا كسبت المعارك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز في الموضع الحاسم وفي الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة من التفوق في سرعة الحركة أو في قوة الاصابة أو في تدبير الوقاية .

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية حيثما حارب وظهره الى الصحراء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام .

★ ★ ★

ووضع الخبير المشهور ليدل هارت كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه في قوله : « ان التحرك في الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفي الحرب ـ كما في المصارعة ـ انما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذي يلقاه خصمك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير في قوتك على نحو من الأنحاء . وقد يضعف الحسم في النتيجة مع ذلك . وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور لا في عصر واحد ، وفي جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، ان الاخلال بتوازن

العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التي لا محيص عنها للقضاء عليه » ..

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التي كان يتوخاها ابن الوليد ، أما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، وأما بالمفاجأة التي لا تتوقع بحال من الأحوال ، وأما بالكمين الذي يدخل اليأس على العدو في ساعة بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق .

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الانسان في الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هي معرفة الوقت ، ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة ، وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين ..

وقال خبير حربي آخر هو أرثر برني في كتابه « فن الحرب » معقبا على حرب الفرس واليونان : « كانت قوة الفرس ، جنودا ، قائمة على الخيالة والرماة .وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهاما ، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان ، وكانت التبعة في خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فاذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا ــ وكل شيء يتوقف على هذا ــ تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة » .

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذي خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذي خيبها مع العرب من أيام ذي قار الى أيام خالد بن الوليد ، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجُنة (٢) التي احتمى بها

---

(٢) الجنه : « بضم الجيم » الوقاية .

العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة في بعض الأحيان ، وقد قيل في الأمثال الشعبية التي هي أصدق من قواعد الخبراء « الذي تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم ان الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندي الذي ينافح عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف • فلم يلق الفرس ولا الروم الا في التحام •

وقد صح هنا رأي ونترجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذي سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها ان التغيير لا ينبغي وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقي فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا قبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الاطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء » •

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهي على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد •

وجملة القول ان خالدا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون في مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبي الضرورة

عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات في أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه في الدماغ ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه ·

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : « تمايزوا أيها الناس » فاذا هم بعد لحظات متمايزون ··

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه · فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود ، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب · أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول ·· فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط ··

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لأنه يمزج الفن بالبديهة ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة « القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان · وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح ·

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميدانه كميدانه · فالاسكندر في وقعة « اربل » هزم جيشا فارسيا

العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة في بعض الأحيان ، وقد قيل في الأمثال الشعبية التي هي أصدق من قواعد الخبراء « الذي تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم ان الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندي الذي ينافح عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف • فلم يلق الفرس ولا الروم الا في التحام •

وقد صح هنا رأي ونترجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذي سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها ان التغيير لا ينبغي وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقي فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا قبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الاطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء » •

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهي على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد •

وجملة القول ان خالدا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون في مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبي الضرورة

عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات في أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه في الدماغ ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه ٠

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : « تمايزوا أيها الناس » فاذا هم بعد لحظات متمايزون ٠٠

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه ٠ فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود ،لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب ٠ أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول ٠٠ فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط ٠٠

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لأنه يمزج الفن بالبديهة ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة « القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان ٠ وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح ٠

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الاسكندر و بلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميدان كميدانه ٠ فالاسكندر في وقعة « اربل » هزم جيشا فارسيا

تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس في وقائع أرمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين ٠٠ والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا في هذا الميدان ، لأن الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة في ذلك الزمان ٠٠

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التي تصدى لها القائدان الكبيران ، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ، ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده ٠ وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم ، ومنهم الرومان في أكبر الميادين ، ميدان اليرموك ٠

فمكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية ٠ وفيه من ملامح القيادة في العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة ، وانه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه ٠

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها ٠ فبحثوا ونظروا فلم يجدوها ، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا في طلبها حتى وجدوها ، فاذا هي خلقة لا تساوي شيئا ٠ فسئل عن ذلك فقال : « اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهي معي الا تبين لي النصر » ٠

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب ٠٠ فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت ٠ وما في ذلك من عجب ، فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء ٠

وقال خالد في أخريات عمره : « ما ليلة يهدي الي فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام أحب الي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » ٠

هذا حبيب الحرب الذي يهواها وتهواه ٠ فله منها الصفوة التي لا تصطفي بها أحدا من الطلاب والقرناء على بغضاء ٠

مفتاح شخصيته

تقدمت الاشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وطول القامة، وانهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم اليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن انه يخاطب خالد بن الوليد ·

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين ان الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز أن يقال فيه انه « جندي » بالفطرة وان « مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية ، فاذا أحضرنا في أخلادنا كلمة « الجندي » أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في معنى من معانيها ··

وبين الرجلين فارق لاخفاء به في الخلق والتفكير ·

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندي مطبوع على الخلائق الجندية ، ولكن ابن الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندي ، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب ·

وأصح من هذا أن نقول ان عمر كان جنديا في أخلاقه الوازعة الحاكمة ، وان خالدا كان جنديا في أخلاقه الدافعة المهاجمة · وفي الجنود ، كما لا يخفى ، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق ·

ولا ريب ان هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين « شخصيتين » ·

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارقا بين « قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين ·· فان الفوارق بين بني عدي قبيلة عمر وبين بني مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن

تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين .

فبنو عدي ـ آل عمر ـ كانوا في الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل في الخصومات ، وقد ذاقوا ، كما قلنا في « عبقرية عمر » : « طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس ، وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم .. فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه » ..

أما بنو مخزوم ـ آل خالد ـ فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا في الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليد ، والعدة والعديد .

وكان ثراؤهم يملي لهم في أسباب الترف والنعيم كما تملي لهم فيه مزية أخرى من المزايا التي تكفلها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك المزية هي جمال النساء .

فقد كان يقال ان « المخزوميات » رياحين العرب .

وكان في رجالهم ذلك الغزل الذي أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبي ربيعة ، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى في النساء والاتقياء ..

جاء في كتاب الأغاني عن أبي السائب المخزومي : « انه كان رجلا صالحا زاهدا متقللا يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا ، فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه ، فأبطأ الغلام الى العتمة . فلما جاء قال له : يا عدو نفسه ، ما أخرك الى هذا الوقت ؟ .. قال : جزت بباب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بني ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ولئن كنت أسأت لأضربنك . فاندفع يغني بشعر كثير :

ولما علوا شغبا (١) تبينت انه
تقطع من أهل الحجاز علائقي

---

(١) سهل بين طريقي مصر والشام .

فلا زلن حسرى ظلعا ثم حملنهـا
الى بلـد نـاء قليـل الأصـادق

« فلم يزل يغنيه الى نصف الليل · فقالت له زوجته : يا هذا ، قد انتصف الليل وما أفطرنا · قال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره · فلـم يزل يغنيه الى السحـر · فلما كان السحر قالت زوجته : هذا السحر وما افطرنا ، فقال ، أنت طالق ان كـان سحورنا غـيره · فلما أصبح قـال لابنه : خذ هذه واعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما · فقال له : يا أبت أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا اقوى على البـرد منك · قال : يا بني ·· ما ترك صوتـك هذا للبرد علي سبيلا مـا حييت » ·

واطرح كل ما هذه القصة من المبالغة والاغراق تبق منها بقية كافيه لبيان مكان الغزل من نساك بني مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء ·

وندع القبيلة الى الأسرة فيتزاءى لنا في النظرة الاولى ذلك الاختلاف الذي لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسه ، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين ·

لكنه مع هذا فرق في المعيشة لا يتغلغل الى بواطن وطباع · انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع ، بل الى أعمق أعماقها، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد ·

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا « قلق عصبي » في هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف في أفراد منها ، واعتدل بعض الاعتدال في آخرين ··

فعمارة بن الوليد هو الذي بلغ منه الاضطراب أن يراود امـرأة في محضر زوجهـا ، وأن يجترىء على حـرم النجاشي بالمغازلة ، ثم يجترىء بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد في الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله في لغة العصر الحديث ··

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد انه كان يتفزع في نومه · فذاك أثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما

هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائهـا ، وان كان يجمح بهم في حين ويكبح في حين ..

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبي عبيدة بعد تسليم دمشـق ومصالحة أهلها . وقد كانت علة المغاضبة ان أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبي والاغتنام والقصاص .

وكانت في خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفي القليل الذي بلغنـا اشارة الى الكثير الـذي لم يبلغنا . فقد غاضب أبـا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بـن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه : « لقد هممت ألا أكلمك أبدا » فأصلح بينهما النبي عليه السلام وهو يقول لخالد : « يا خالد .. ما لك ولعمار .. رجل من أهـل الجنة قد شهد بدرا » ثم يقول لعمار : « ان خالدا يـا عمـار سيف من سيوف الله على الكفار » .

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحـان لاختـلاف لوني « الجنديـة » في شخصية الرجلين العظيمـين . عمر الى الجندية الموزوعـة وخالد الى الجندية المدفوعة ، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح .

ولا يرد الينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذي أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس في عذره والثناء عليه ، ونعني به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة . فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل في صحبة زوج محببة اليه . فقضى في وادي الوبر باليمامـة أيام الدعـة بين زوجيه بنت مجاعـة وبنت المنهال . وقضى في دومة الجندل أيـام الهدأة بين الوقائع في صحبة ابنة الجودي الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعـد العزل وآثره على المقام بالحجـاز . وأغضب الفاروق لأنـه

« كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر » فلما لامه الفاروق في ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهل أبا حفص فانلدينا
شرائع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه
حميا الخمور ، والخمور تسلسل

وفي كل أولئك هو سليل حق لبني مخزوم ولبيت الوليد ، وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التي تجنح به الى المتعة في أيام الدعة كما تجنح به الى البطش في مقام الجلاد والتناد ، وتفسر لنا الجندي الذي تميل به القوة الحيوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الأقران ٠

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : « ما ليلة يهدى الي فيها عروس أنا لها محب أو آبشر فيها بغلام أحب الي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » ٠٠

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس عنده غاية المتاع ٠

والحرب في رأيه حسناء تشتهى أبدا ولا تشيب كصاحبة الزبيدي التي تكون في مبدئها « فتية تسعى بزينتها لكل جهول » ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهي متعة القوي اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم ٠

هي متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد ، وليست متعة المتهافت الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها ولا يفيق من سكرتها ٠

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فاذا طالت عافها وبرم بها واجتواها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها ٠٠ فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها

« سنة نساء » لأنها كانت راحة من العناء ٠٠ مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة يتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك ٠٠

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير ٠٠

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء ، وما بقي من الطبيعة للرياضة فقد اتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التي لا تلين ٠ باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب ، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياما بعد أيام ٠

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس في ساعة الموت انها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : « لقد طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدر لي الا أن أموت على فراشي ٠٠ ولقيت الزحوف وما في جسدي شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » ٠٠

وأقرب شيء أن يلاحظ في سيرة خالد ــ من نشأته الى وفاته ــ ان هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم ٠٠ ولم يعرف قط عنه انه حمل الضغينة لأحد من الناس ولو انه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب، لأنه عزله وشطر ماله وأبقاه في العزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه ٠ وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم انه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه : « الحمد لله الذي قضى على أبو بكر بالموت وكان أحب الي من عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض الي من أبي بكر ثم ألزمني حبه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه «الأعيسر بن أم شملة» فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب في لعبة لا في غرض عظيم يقعد ويقيم ٠

وقد يمكن كثيرا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء في سبيل الغيرة القومية أو في سبيل الايمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع في نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه ، وليس في المجتمعات الانسانية التي تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة عن القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان ، ما دام في بني الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغي والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف ٠

وعلى كثرة من قتل خالد في حروبه لم يكن يقتل احدا قط وهو يشك في صواب قتله وان أخطأ وجه الصواب ٠ فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره في « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار ٠

أما اذا شك في صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق الى الرفق رجلا كأبي عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة ٠ فيقول له وقد تناول رجلا بشيء : « اني لم أرد أن أغضبك ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا » ٠٠

فهو مطبوع على عداء الجندي المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر في صغائر العيش وسفاسف الأمور ٠

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة انه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذي يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارا الا كفرار الحيوان ٠

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الاقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة ٠٠ وانما هزم في حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كله كما قدمناه ٠

أما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن

يؤمن بهذه الحقيقـة وأن يدبر أمر التراجـع بعد ذلك على النحو الذي يصون الكرامة ويصون الدماء ، ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذي أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان في وسعـه أن يبطش بالمتراجعين جميعـا قبل أن يفلتـوا من أوهاقه المطبقة عليهم ٠

هذه هي الجنديـة البصيرة بمزاياها في الكفـة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هي الجندية الغالبة أبدا وهـي في أقدام أو في أحجام ٠

ولقد كانت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية ٠ فمن أقواله : ان الجهاد شغلني عـن تعلـم القرآن ، أو قراءة كثير من القرآن ٠٠

وعذره في ذلك حين قال ذلك المقال انه لم يقض في ملازمة النبي غير أوقات جد قصار ، لأنه شغل السنوات الثلاث التي قضاها مع النبي بعد اسلامه وهو بين السرايا والغزوات ٠

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه ٠ ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي الفصيح الناشيء في كنف الفصحاء ، ثـم هي كلهـا ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فاذا قال كلمـة أو كتب سطرا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع ٠

كتب الى مرازبـة فارس فقال : « الحمد لله الـذي فض ملككم وأذل عزمكم ، فاذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا الي الرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا الي الجزية ، والا والله الذي لا الـه الا هو لأسيرن اليكم بقـوم يحبون المـوت كما تحبون الحياة ، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » ٠٠

وخطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق الى الشام فقال : « لا يختلفن هديكـم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النيـة ، والأجر على قدر الحسنة ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له » ٠

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا في المعسكر يصيح:

ما أكثر الروم وأقل المسلمين ··

فلم يكن أسرع منه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين · ان الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان » ·

فكل كلمة منه فانما هي ضربة سيف في صورة حروف ونبرات ·

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس انه على التشابه بينه وبين عمر كان في عمر جانب فكاهة وان كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب في عمله أو كلامه ·

وقد كان الأدنى الى الظن ـ عند النظرة الأولى ـ أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذي نشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي نشأ على العسر أو اليسر القليل ·

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها ·

لأن الأعسار في الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة في ذلك حيث ننظر الى منشأة الفكاهة في جملتها ، فهي على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة · وما أكثر المفارقات في حياة المعسرين ·

ولعلنا نبلغ مقطع القول في هذه الملاحظة حين نقول : ان الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول ·· رحم الله خالدا ·· انه كان جنديا وكفى !

لكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في الآخرين ، لأنه قد رزق الجندية في طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفي عشرة من جنود التاريخ المبرزين ·

نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص ـ زهاء سنوات أربع ـ لم يفارقها قليلا الا ليعود اليها ٠

وعاش هناك بين آهله وولده وهم كثيرون ٠

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان ٠ فمات من أولاده نحو أربعين في سنة الطاعون ٠٠

ولم ترو لنا كلمة قالها خالد في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين ، وهو الرجل الذي كان التبشير بغلام عنده فرحا من أكبر أفراح الحياة ٠ فكأنما آلف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب ، فهو لا يلقاه أبدا لقاء غريب مريب ٠٠

* * *

وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب معاوية ٠٠ فمات المهاجر في صفين ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل ، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد ٠ فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن آثال ٠٠

وما هي الا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير ـ صاحب الموت والقدر ـ فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء آخيه ٠

وانتهت حياة خالد رضي الله عنه نهايتها العجيبة ، بين سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين ٠

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه ـ كما قال ـ بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا في نجد والحجاز والعراق والشام ، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح ٠

وليس هذا كل ما في موته من «غير المألوف» أو غير المنظور ، فانه مات ولم يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هي بالسن التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد ٠ فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة ،

وذلك الاضطراب الذي كان يفزعه في نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار ٠

ولم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله ٠ فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به ٠٠ ونكس مرارا وهو يسترجع كلما رفع رأسه ٠ ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة ٠

* * *

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة ٠ قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتي حتى تسودى يديك من الخضاب ٠

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر: أرسل اليهن فانههن٠ فقال : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة ٠ على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » ٠

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة ابن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي:لم استخلفته على أمة محمد ؟ ٠٠ لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي من استخلفت على أمة محمد لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد : سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ؟

ولعمري ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهور ٠

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا في سيرة خالد ابن الوليد ٠ان الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر واناة ٠ فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة ٠ ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه ، وهو الرجل الذي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين ٠

نعم انه لا فتنة وابن الخطاب حي كما قال ، وان الفتنة انما تخشى :

« اذا كان الناس بذي بلى » أو في معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الامام » ٠

ولكن ادراك هذا وحده مفخرة من المفاخر ، وليس كل ادراك كهذا الادراك بالذي يغلب الهوى ويقمع النزوات ٠

فلا جرم يرشح الفاروق خالدا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله في الغمد كما عرفه وهو في يمين البطل الجسور ٠ فان يكن خالد مخشي المزاحمة على الخلافة في ظن من الظنون فليس هو بمخشي عليها وقد وصلت اليه معهودا اليه خالصة من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة (١) الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقرب ما بينه وبين الله ٠

* * *

لقد مات — نصير الموت — مطمئنا الى نهاية حياته ، لا يكره منها الا انها انتهت به على فراشه ٠

ولكننا — أبناء آدم — نكره كثيرا ما يكون من حقنا أن نتمناه ٠ وما كان لخالد أمنية قد بقيت له في ميدان الكفاح يتمناها ٠ لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع ، ولم يبق له الا أن يعرفوه في ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور ٠ وقد عرفوه على هذه الصفة في ميدان حمص — ميدان السلم والتسليم — خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم ٠

---

(١) سورة الغضب : حدته وشدته ٠ و « ريض » فعل مبني للمجهول من « راض » أي درب ومرن ٠

فهرس